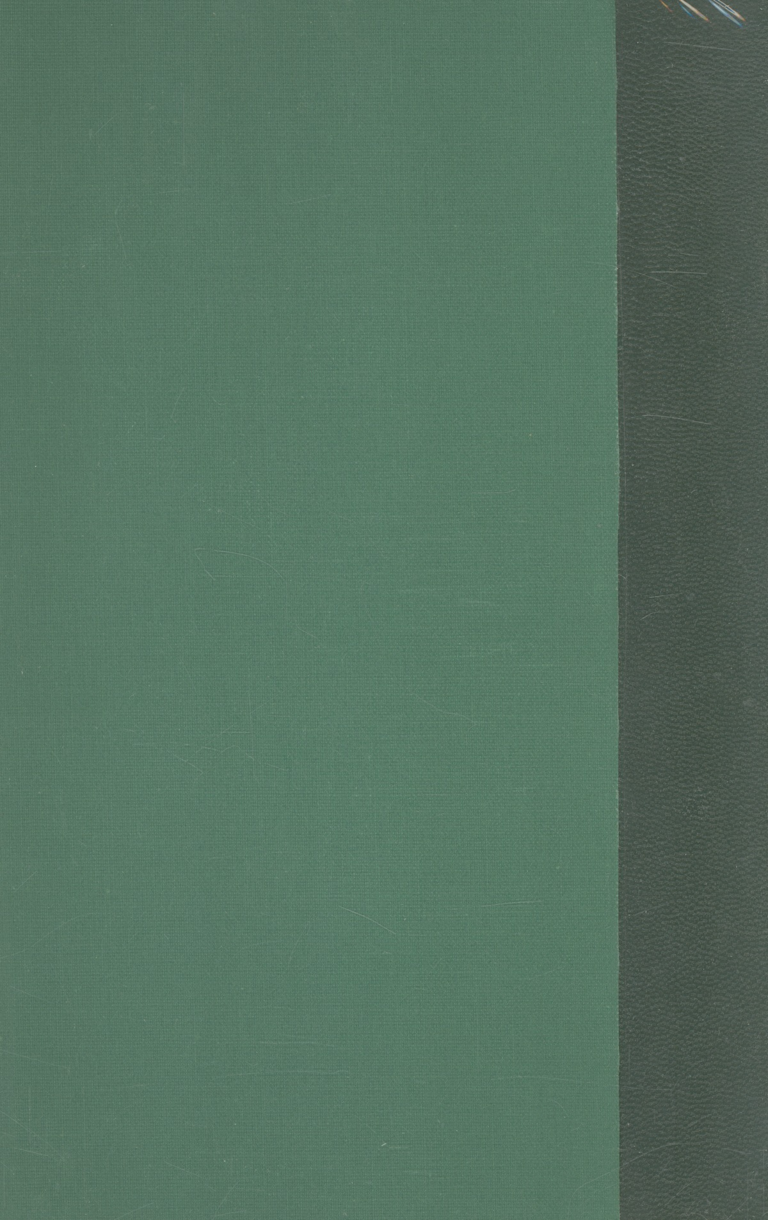


كلمة
في
اللغة العربية

خطبة خطبها

اسعاف النشاشيبي

من اعضاء المجمع العلمي العربي في الشام

والمجمع العلمي في الشرق العربي

في دار جمعية الرابطة الشرقية في القاهرة

في اليوم الاول من ذي القعده سنة ١٣٤٣

مطبعة بيت المقدس في القدس

١٩٢٥

أهدي

هذه الخطبة

الى

مصر

مصدر المدنية

وموئل العربية

اسعاف النشاشيبي

كلمة

في

اللغة العربية

الجزء الاول (*)

ألا إنّهُ لم يشقَ أحدٌ في هذا الوجود شقاءَ هذه اللغةِ العربيّة . ولم يُعانِ اخو بُؤس من زعازع (1) الدهر ولم يُعاين مــا عانتهُ وما عاينته

« ولو أنّ مــا تلقى يُصيبُ مُتالِعــاً
او الرُّكنَ من سَلمى إذاً لتَضعضعَا (2) »

ولم يذلّ عزيزٌ من بعد عَزازته ذُلّها . ولم يُضمْ كريم عند قومه

(*) لم يقل من الكلمة في دار (الرابطة) الا هذا الجزء وهو ثلثاها . وقد نشرت متنه جريدة (السياسة) المشهورة

واني لشاكر لرجال (الرابطة) السراة الكرام اعتزامهم يوم قلت (الخطبة) طبعها واهداءها الى اهل الفضل وعادّ النية عملا . والقصدُ عندي في مواقف الخير صنيعة. وقد قالوا في القديم : « ان اهتمامك بالمعروف معروف »

وشاكر للفاضل ذي الهمة نجيب افندي متري صاحب (مطبعة المعارف) أنْ نوى نية تلك (الجمعية)

(1) زعازع الدهر اهواله

(2) متالع جبل وسلمى جبل طيء

اذ لؤموا ضيمَها . ولم يزهدْ جاهلٌ مطبوعٌ على قلبه في أَكبر مآثر سلفه زهدَ قوم هذه اللغةِ في لغتهم . ولم تُعَبْ حسناء خلَّصتها الطبيعةُ من كل شَين كما عيبتْ هذه اللغة العربيَّة بل الحوراء الرّضوانيَّة

ولم يُسئ امرؤٌ الى عدو أَبْلَغَ(١) اليه إساءةَ أَبناء هذا الزمان إلى (فتاة الجزيرة) فقد هجرها فريقٌ منهم هجراً وجعل هِجْرِيّاءَه(٢) ازدراءَها واعتراض(٣) عِرض المتدلّهِ بها والاستنخار من كل مُهيب(٤) بالناس الى حذقها وروايتها . واستبدل فريقٌ بهذه اللغة الفصيحة الصحيحة البليغة الكريمة السريّة لغةِ القرءان المعجز والحديث ولغة المفضليّات والجَمهرة والحماسة والكامل والأَماليّ والبيان والتبيين والعقد والأَغانيّ — تبدَّل بلغة كل ذلك لغةَ هذا الوقتِ وهي لغةٌ تُقصّر يراعةُ كلّ بليغ عن وصف سخفها وركاكتها وسماجتها وعجمتها . فاعتاضَ إذْ أَعرضَ عن تلك وهويَ هذه الصفُر(٥) والحديدَ عن اللُّجين(٦)

---

(١) ابلغ اليه فعل به ما بلغ به الاذى والمكروه البليغ (الاساس)
(٢) دأبه وشأنه
(٣) اعترض عرضه وقع فيه وتنقصه
(٤) اهاب به الى كذا دعاه
(٥) النحاس الاصفر
(٦) الفضة

والعقيان [١] وكان جهولا

« أَخذتَ بالجُمَّةِ رأساً أزعرا   وبالثنايا الواضحات الدُرْدُرا [٢]»

وضلَّ فريقٌ عَمِهٌ ماضٍ على المُخيّل [٣] في التمييز بين الكلام المعجز والقول الذي هو كالأقوال ولم يهتدِ إلى الطريق الحافظ [٤]

وإني لَمَّا ظننت أنْ لم يبقَ من هذه اللغة الا حُشاشةٌ [٥] مُحتَضَر [٦] ووجدتُ تفاقم [٧] هذا الشرّ الجسيم وتأجّج [٨] ناره في الأقاليم العربيّه وشاهدتُ استفحالَ [٩] ذلك الداء الدويّ سارعتُ الى إهماد النار من قبل أنْ يأتي يوم يتعذَّرُ فيه إهمادُها . وابتدرتُ [١٠] مداواةَ الداء

---

(١) النهب
(٢) الجمة مجتمع شعر الرأس . الازعر القليل الشعر . الثنايا اربع اسنان في مقدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من اسفل . الدردر مغارز اسنان الصبي والمراد هنا اصول الاسنان
(٣) اي على ما خيلت نفسه (ما ارته وشبهت واوهمت) و (العمه) غير العارف الحجة والوصف والمتردد في الضلال والعمه كالعمى غير ان العمى عام في البصر والبصيرة والعمه خاص بالبصيرة فلا يقال اعمه العين
(٤) الواضح قال النضر ، هو البين يستقيم لك ما استقمت له مثل محز العنق فاما الطريق الذي يقود اليومين ثم ينقطع فليس بحافظ
(٥) الحشاشة بقية الروح في المريض والجريح
(٦) احتضر الرجل حضره الموت فهو محتضر
(٧) اشتداد
(٨) التهاب
(٩) استفحل الشيء اشتد وحقيقته ان يصير كالفحل
(١٠) ابتدر الشيء عاجله

قبل ان يُمسيَ عُضالاً عياء. فأمليتُ هذه الكلمة.

***

قد أطبقَ عُلماءُ المشارقة والمغاربة على أنَّ هذه اللغةَ العربيّة من أبلغِ لغاتِ الكُرَةِ الأرضيّة ومن أفصحِ اللّهَجَاتِ التي حرّكَ الانسانُ بها لسانَه من بعد ان جاب الأفقَ الحيوانيّ وجاء الأفقَ الإنسانيّ. ولغاتُ الأُمم كافةً اي لغاتُ التصور والفكر إنما أصلُها لغات الأصوات[1] وقد ورِثها الأناسيُّ عن الأقربين من قِرَدَةِ آخر الوقت المعدِنيّ كما ورثوا عنها سواها. وفي أرض الهند مسقط رأس البشر طائفة من القرود تُطرِبُك بالحانها المتناسقة الموسيقيّة وتُنبئُكَ إمّا اختلج الريبُ في صدرك بأصل الناس واصل لغاتهم[2].

---

(١) جاء في (المزهر): «اصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وقال ابن جني: حد اللغة اصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم. وهي تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف. وقال الامام فخر الدين: السبب في وضع الالفاظ ان الانسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لا بد من التعاون ولا تعاون الا بالتعارف ولا تعارف الا باسباب كحركات او اشارات او نقوش او الفاظ توضع بازاء المقاصد. وايسرها وافيدها واعمها الالفاظ. وقال عباد بن سليمان الصميري: ان بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على ان يضع. وقال بعضهم: اللغة لم توضع كلها في وقت واحد بل وقعت متلاحقة متتابعة»

(٢) اولئك هم الاناسي «قولَ الحق الذي فيه يمترون»

وقد آثرت الطبيعةُ قطينَ مَهافي[١] الريح باللغة العربيّة كما آثرت غيرَهم من الأُمم بغيرها · ولكن هذه اللغة لم تكن في أَول يوم أَنيقةً مجوّدة كما حملها الينا (الكتاب) المعجز وقصائد شعرائها فقد كانت مثلَ شقائقها فشذّبها الدهرُ وصقلها حتّى عادت كالوذيلةِ[٢] المشوفة[٣]· وهذا صُنع (الانتخاب الطبيعي) قال ضياء الدين بن الاثير في (المثل السائر[٤]) :

«حضر عندي في بعض الايام رجل من اليهود وكنت اذ ذاك بالديار المصرية وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لمكانٍ علمه في دينهم وغيره وكان لعمري كذلك· فجرى ذكر اللغات وان اللغة العربية سيدة اللغات وانّها اشرفهن مكانا · واحسنهن وضعا· فقال الرجل كيف لا تكون كذلك وقد جاءت آخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها واخذت الحسن · ثم انّ (واضعها) تصرف في جميع اللغات السالفة فاختصر ما اختصر وخفّف ماخفّف· فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني (كوميل) مما لاّ على وزن (فوعيل) فجاء واضع اللغة العربية وحذف منها الثقيل المستبشع وقال (جمل) فصار خفيفًا حسنًا وكذلك فعل في كذا وكذا ·· وذكر اشياء كثيرة

(١) المهافي جمع المهفى اسم مكان من هفت الريح تهفو هبت

(٢) المرآة او القطعة من الفضة

(٣) المجلوة

(٤) قال ابن خلكان : «ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله كتابه الذي سماه المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر وهو في مجلدين جمع فيه فاوعى ولم يترك شيئًا الا ذكره»

ولقد صدق في الذي ذكره وهو كلام عالم به [١]»

وإنَّما غادر اللغة العربيَّة محلّقةً على هام العبرانيَّة وشقائقها كافَّةً انَّ الكتابةَ لم تُقيدها ولم تحبسها في مكان لا تتخطاه . فظلّت من بعد تلك اللغات المربوطة بالخط آلافاً من السنين مرسلة غير مقيدة . فأنشأ الدهر الذي أَراد ان يُطرفَ الناسَ هذه الطرفةَ الكريمة المنقطعة القرين يقوّم منها كل مناد[٢] ويجلو كلّ ذاتِ رَين[٣] . وقد أَقام في عمله هذا حقُباً الى ان جاءَ اليوم الذي اظهر فيه جوهرته الثمينة ولؤلؤته المكنونة فغنّى الزمان بلغة ابناء قحطان أَتقنَ صوت استمعته الأناسيّ وطلع علينا في تلك الآونة[٤] اشعر الشعراء الملك الضّليل « أول من وقف بالديار وعرصاتها واغتدى والطيرُ في وُكناتها . ووصف الخيلَ بصفاتها . و (النابغة) الذي كان ينسِب اذا عشق . ويثلِب اذا حنِق . ويمدح اذا رغب . ويعتذر اذا رهِب . ولا يرمي الا صائبا [٥] . و (زهير) الذي كلامه حكمٌ فارس ومقامات الفوارس .

---

(١) الاقوال العربية التي بين اربعة أهلة هي لطائفة من ائمة السلف الصالح والاقوال الافرنجية نقلتها من لغتها ما عدا قولين لكارليل

(٢) معوج

(٣) صدأ

(٤) الاونة جمع اوان

(٥) نعت امرئ القيس والنابغة للبديع الهمذاني . ونعت باقي الشعراء المذكورين (ما خلا الخنساء) لابن شرف القيرواني

ومدح يكسبُ الفخار . و يبقى بقاء الأَعصار . ومعاتبات مرّةً تحسُن . ومرّة تخشن . و (طَرَفَةُ) الذي خُصَّ بأوفر نصيب من الشعر . على أَيسر نصيب من العمر . فملأَ أرجاءَ ذلك النصيب بصنوف من الحكمة . واوصاف من علو الهمة . والطبعُ معلمٌ حاذق . وجواد سابق . و (لَبيد) الذي شعرُه ينطِقُ بلسان الجزاله . عن جَنان الأَصاله . فلا تسمع له الا كلاماً فصيحا . ومعنى مُبيناً صريحا . و (عنترةُ) الذي انفرد بمعلقته انفرادَ مهيل . وغَبَّرَ (١) في وجوه الخيل . وجمع فيها بين الحلاوة والجزالة . ورِقَّة الغزل وغِلظة البَسالة . و (ابن حِلِّزةَ اليشكري) الذي سهَّل الحزون (٢) . وقام خطيباً بالموزون . والعادةُ ان يسهل شرحُ الشعر بالنثر . وهذا اسهلَ السهلَ بالوعر . وذلك مثل قوله :

أبرموا امرَهم عشـاء فلَّما ... أَصبحوا اصبحتْ لهم ضوضاء (٣)

من مُناد ومن مُجيب ومن تَصـ ... ـهال خيل خلالَ ذاك رُغاء

فلو اجتمع كلُّ خطيب ناثر . من أوّل وآخر . يصفون سَفْراً (٤) نهضوا بالإسحار . وعسكراً تنادى بالنهوض الى طلب الثار . ما زادوا على هذا ان لم ينقصوا منه ولم يقصّروا عنه . و (ابن كلثوم) صاحب الواحدة التي أَنطقه بها عزُّ الظفر . وهزه فيها جِنُّ الأَشر (٥) . فقعقعت (٦) رعودهُ في أرجائها . وجعجعت رحاه

---

(١) غبر في وجهه سبقه
(٢) جمع حزْن . وهو ما غلظ من الارض
(٣) ان لم تكن هذه الكلمة مؤنثة ولا جمعا فهي كالصوت في قول الحماسي : (سائل بني اسد ما هذه الصوت) يريد الجلبة
(٤) جمع سافر كصحب وصاحب والسافر الخارج الى السفر
(٥) جنّ الشيء اوله والاشر البطر
(٦) فصوتت ومثلها جعجعت والرحا في الاصل التي يطحن بها

في أَثنائها . وجعلتها تغلبُ قبلتَها التي تُصلّي اليها . ومِلّتها التي تعتمد عليها . و (نابغة بني جَعدة) نقيّ الكلام . وشاعر الجاهلية والاسلام . الذي استحسن شعره افصح الناطقين . ودعا له اصدقُ القائلين . و (الأَعشى) صنّاجة [١] العرب شاعر المدح والهجاء . واليأس والرجاء . والتصرف في الفنون . والسعي في السهل والحزون . و (الاسود بن يَعْفُر) أَشعر الناس اذا ندب دولة زالت . او بكى حالة حالت . او وصف رَبْعاً خلا بعد عمران . او داراً دَرَسَتْ بعد سُكّان . و (حسّان) الذي اجتثّ [٢] بواكر غسان . ثم جاء الاسلام . وانكشف الاظلام . فجاحش [٣] عن الدين . وناضل عن خاتم النبيين . فشَعُرَ و زاد . وأَحسن وأَجادْ » . والخنساء [٤] التي ساجلت الفحولَ من الشعراء . وساندت مقالة (هنريك ابسن) في النساء و بيَّنَتْ أَنّ الطبيعةَ عادلة لم تظلم أَحدا وأَنَّها قد كرَّمت الفئتين . وأَحسنت الى القبيلين . فما أَوْتحت [٥] للمرأَة العطاء . لتُجزل [٦] للمرء في الحباء . وأَنَّها القائلة : « إِن النساء شقائق الاقوام [٧] »

---

(١) الصناجة صاحب الصنج والتاء للمبالغة والصنج صفيحة مدورة من النحاس يضرب بها على اخرى مثلها للطرب الجمع صنوج . وصناجة الجيش الطبل . ولقب الاعشى صناجة لجودة شعره

(٢) اجتث اقتلع واستأصل وحقيقة الاجتثاث اخذ الجثة كلها والباكورة اول ما يدرك من الفاكهة ومن كل شيء اوله وأصله

(٣) دافع

(٤) بارت وفاخرت

(٥) قللت

(٦) لتوسع وتكثر

(٧) من امثال العرب ومعناه ان النساء مثل الرجال وشقت منهم (الميداني)

فلعب هؤلاء المغرّدون بالشعر العربي العُلْوي[١] بالالباب ·
واسكروا الناس من غير شراب

*
* *

وجاءت الأمثال العربيَّة المُشْملة « لُماظات[٢] حَرَشَةِ[٣] الضّباب ·
ونُفاثات[٤] حَلَبَةِ اللّقاح[٥] وحَمَلَة العِلاب[٦] ·من كل مُرتضع دَرَّ الفصاحةِ يافعًا
ووليدا · مرتكِضٍ في حِجر[٧] الذّلاقة تَوْءمًا ووحيدا · قد ورد مناهل الفطنة
يَنْبُوعًا فينبوعا · و نزف[٨] مناقع[٩] الحكمة لَدودا[١٠] ونُشوعا[١١] »

*
* *

وجاء صاحب شريعتنا العربية فجاء أَبلغُ عربيّ · وافصح ناطق
باللسان الضاديّ · وجاءَ القولُ المعجز الباهر · فخرست شقشقةُ[١٢]

---

(١) غُنّي النعمان بشيء من دالية النابغة فقال: هذا شعر النابغة هذا شعر علوي اي عالي الطبقة (الزمخشري)
(٢) اللماظة بقية الطعام في الفم
(٣) الحارش صائد الضب
(٤) النفاثة ما ينفثه المصدور من فيه
(٥) الابل الواحدة لقوح
(٦) جمع علبة قدح ضخم من جلود الابل
(٧) الحجر في اللغة حضن الانسان
(٨) نزف ماء البئر نزحه كله
(٩) جمع منقع وهو الموضع يستنقع فيه الماء
(١٠) ما يصب بالمسعط من الدواء في الفم
(١١) الدواء يصب في الفم
(١٢) يقال للفصيح هدرت شقشقته

كل هادر . « وزخر[١] البحر (كما قـال محمود) فطم[٢] على الكواكب[٣] .
واشرقت الشمس فطمست نور الكواكب» وسمع الناسُ «كلاماً هو المسك ذكيّاً
والزّهر جنيّاً . والماء مرئيّاً . والعيش هنيّاً . والسحر بابليّاً »

وجاء مع هذا النبي العظيم . كتابٌ كريم . بلاغةُ العرب الخُلَّص
العَرباء . وفصاحةُ مصاقع[٤] الخطباء . وخناذيذ[٥] الشعراء متحـاقرة
متضائلة بين يدي بلاغته وفصاحته

وإنّ ذلك الكتابَ إذا أنشأ يذكر الجنّةَ والجحيم كاد سامعه
يشهدهما وكاد يرى الجنان ذاتَ الأُكل[٦] الدائم والرياضَ النواضر[٧]
تجري من تحتها الأنهارُ المطّردة . وتغرّد فيها الطير فوق الاشجار المظلّلة
وكاد يهصِر[٨] بيده الأفنان[٩] المتهدّلة[١٠] اليانعة[١١] الأثمار . وكاد

(١) زخر البحر ماج وامتلا
(٢) طمّ غلب وعلا ومن امثالهم : « اتى الوادي فطم على القريّ »
(٣) كوكب الماء مجتمعه
(٤) جمع مصقع البليغ المجهر بخطبته اما من صقع الديك اذا صاح واما من الصقع بمعنى الجانب لانه ياخذ في كل جانب من الكلام
(٥) الخنذيذ من الشعراء المجيد المفلق
(٦) الثمر
(٧) الحسنة الشديدة الخضرة
(٨) هصر الغصن عطفه ومده الى نفسه
(٩) الاغصان
(١٠) المتدلية
(١١) المدركة

يُعاين الثانية . ويؤنس ما لكا والزبانية[١] يُصلونها[٢] كلّ ظالم متكبر جبّار . وكاد هذا السامع يحترق من أُوار[٣] تلك النار

وآياتُ الكتاب كلُّها جُمَعُ في أمرِ إعجازها « كالحَلْقَةِ المُفرغة[٤] لا يُدرى أين طرفاها » كما قالت تلك الأنمارية في بنيها

فيأَيُّها الكتابُ المعجز لقد هلك مَن يُدركِ فصاحتك . ويكتنه بلاغتك . ويقدِرُكِ قدرَكِ . ويُعطيك من خدمتك وحِراثتك[٥] حقَّك

لقد هلك من كنتَ تتلو عليهم آياتِك فيدهشون ويخرّون سُجَّداً وبكيّاً . وهل يعرف بلاغتَك المعرفةَ البليغة إلاّ عربيٌّ قُحٌّ[٦] صليب[٧] لم تشِن ملَكته العربية من العجمة شائنه . ولم تؤذِ أُذنه كلمة قلقة واهنه .

---

(١) الزبانية ملائكة العذاب والزبانية في كلام العرب الشرط الواحد زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع وقيل زبني وكانه نسب الى الزَبن ثم غير للنسب كقولهم إمسي واصله زباني فقيل زبانية على التعويض (الكشاف)

(٢) اصلاه النار ادخله اياها واثواه فيها

(٣) اوار النار حرها

(٤) حلقة مفرغة مصمتة الجوانب غير مقطوعة

(٥) حرث فلان القرءان اطال دراسته وتدبره

(٦) قح خالص اصيل جمعه اقحاح

(٧) عربي صليب، خالص النسب وامرأة صلبية كريمة المنصب عريقته

فسقياً لمثل هذا سقياً ورعياً له رعيا . وتعساً ونكسا[١] وترباً وجندلا[٢] لمن يبغي ان نضلّ فنستحبَّ اللغة الملعونة المرذولة على لغتك البارعة العذبة المضرية «التي سلمت من كل لُكنة[٣] وبشاعة ووضعت على غايةٍ من الاحكام والرّصانة» كما قال ابو القاسم

***

جاءَ كلُّ ذلك فصاح الدهرُ : «ألا إنَّ لُغةَ العرب أَصحُّ اللغات . وبلاغتها أتمُّ البلاغات» وقال لقومها : اليومَ أَكملتُ لكم لغتكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم العربيّةَ لساناً وغادرتكم فيها متَبحبحين[٤] . فإِن حرس هذه اللغةَ رجالُها أَقامت في عليائها[٥] آمنة . وان غفل الحماة أَصبح

---

(١) يُفتح اوله للازدواج (المزهر)

(٢) اسماء جرت مجرى المصادر التي يدعى بها وتربا لفلان وجندلاً اي الزمه الله واطعمه ترباً وجندلا وما اشبه هذا من الفعل فاختزل الفعل هنا . لانهم جعلوه بدلاً من قولك تربت يداه وجندلت وقد رفعه بعض العرب فجعله مبتدا مبنياً عليه ما بعده قال :

لقد الب الواشون ألبا لبينهم ... فترب لافواه الوشاة وجندل

وفيه ذلك المعنى الذي في المنصوب (سيبويه)

(٣) عي

(٤) تبحبح في الامر توسع فيه من بحبوحة الدار وهي وسطها وتبحبحت العرب في لغاتها اتسعت فيها

(٥) العلياء المكان العالي

«الموطن بعد اليفاع[١] الحضيض» وقال الدهر أيضاً : إذا ألَبّ[٢] العرب على تلاوة البليغ من القول واستظهاره وراعَوا سنُن لغتهم. لم تُزايل كلامَهم بلاغتُه. ولم تنأَ عنه طلاوتُه. وان جاوزت الجماعة التخوم[٣] التي جُعِلَتْ في اللغة ردُؤَ القول وبَشِع. وجاء تفضيل البكَم عَلَى النطق. ولقد صدق الدهر في مقاله والدهرُ أَصدق قائل فإنّ العرب لا يزال كلامهم عربيًّا ما جدّوا في استظهار اقوال السلف. قال صاحب الوَساطة[٤]: «أرى حاجة المحدَث الى الرواية أَمسّ واجدّه الى كثرة الحفظ أفقر»

وانظر كيف استجدتَ منثور الادباء والشعراء الاسلاميّين والمولّدين[٥] ومنظومَهم لِما انّ القوم كانوا من الهائمين بمأثور العربّ الأَقدمين ومن المفتشين عن اسراره والمتدربين به. ثمّ انظر كيف

---

(١) اليفاع ما ارتفع من الارض

(٢) الب على الامر لزمه فلم يفارقه

(٣) الحدود

(٤) الوساطة للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني. قال الثعالبي: «لما عمل الصاحب رسالته المعروفة في اظهار مساوي المتنبي عمل الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره فاحسن وابدع واطال واطاب. واصاب شاكلة الصواب. واستولى على الامد في فصل الخطاب. واعرب عن تبحره في الادب وعلم العرب. وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد فسار الكتاب مسير الرياح. وطار في البلاد بغير جناح»

(٥) المولد المحدث من كل شيء ومنه المولدون من الشعراء سموا بذلك لحدوثهم

استركَكْتَ قول (المتأخرين)[1] خَلَف هؤلاء ولم تُعرّج عليه إذ زَهَد في آثار الاوائل وكلف باقوال المحدثين الذين قيل فيهم : «ما كان من حسن فقد سُبقوا اليه وما كان من قبيح فمن عندهم»

وقد خلف ذلك الخَلَف فريق خالف[2] استزله شيطان سجعه واستهوته رقته بل ضعفه والضعيف اليفُ الضعيف ومُخْلد اليه . وراح ابن حجة يشحن في خزانته من الهرَفِ[3] بهم ما يشحن . ويرى هو والعماد صاحب (الخريدة) أَنّ القاضيَ الفاضل في الادباء . كمحمد في الأنبياء . قد نسخت شريعةُ إنشائه كلّ شريعه . وبذّت طريقته البديعيّة كلّ طريقه . ويسجدان عند كل سَجْعَةٍ له ولأشكاله حملت جناساً او أَقلّتْ تورية . وقد استخفهما القول المزوّق والهاهما هزله عن جِدّه وسخيفه عن جزْله وكادت شيعةُ البديعِ تُقوّض من اجل النكتة البديعية قواعد

---

(١) قال ابن خلدون « من كان محفوظه شعر حبيب او العتابي او ابن المعتز او ابن هانئ او الشريف الرضي او رسائل ابن المقفع او سهل بن هرون او ابن الزيات او البديع او الصابي تكون ملكته اجود واعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين او ابن النبيه او ترسل البيساني (القاضي الفاضل) او العماد الاصفهاني (صاحب الفتح القسي) لنزول طبقة هؤلاء عن اولئك . يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق »

(٢) خلف الغلام حمق فهو خالف

(٣) في الاساس : هو يهرف بفلان نهاره كله وهو الاطناب في الثناء شبه الهذيان للاعجاب به

العربية تقويضا

ثمّ طلعتْ من بعد هذا الفريق طائفة وسوس اليها ابليس الخبيث قال : إنك لن تظفري بامانيّك من التصبغ (١) في اللغة إلا اذا أكببتِ على حفظ الاراجيز النحويّة وأعرضتِ عن ذلك الشعر القديم. فاتبعته فكانت من الهالكين . وقد قال ابن خلدون : « العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربيه المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيه او ذي مودّته او شكوى ظُلامة أخطأ فيها عن الصواب ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على اساليب اللسان العربي . وحصولُ ملكة اللسانِ انما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب (٢) حتى يرتسم في خياله المنوالُ الذي نسجوا عليه

---

(١) التمكن منها

(٢) قال الاصمعي : « لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتى يروي اشعار العرب ويسمع الاخبار . ويعرف المعاني . وتدور في مسامعه الالفاظ »

وقال ابن خلدون : « من كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديءٌ ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه او عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط واجتناب الشعر اولى بمن لم يكن له محفوظ » وقال بعض الائمة « وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل اصحابه برواية الشعر ومعرفة الاخبار والتلمذة لمن فوقه من الشعراء فيقولون فلان شاعر راوية يريدون انه اذا كان راوية عرف المقاصد وسهل عليه ماخذ الكلام . ولم يضق به المذهب واذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم وربما طلب المعنى فلم يصل اليه . وهو ماثل بين يديه لضعف آلته كالمقعد يجد في نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الالة »

فافقه (ايها الاديب) ما تتلوه وحذاريك ابليسَ ان قال لك يوماً ارادةَ ان يستوردك

فينسج هو عليه . و يتنزّل بذلك منزلة من نشأ معهم »

ولم تنفكّ الأُمّةُ منذ ذلك الحين (الامَن شذّ عنها وشأنُ الشاذّ معلوم) تهِن وتسفُل و يركّ قولها و يسخف شعرها و يحكي بيوت العنكبوت في وهنها حتّى جئنا هذا العصر

فماذا يرى اليوم المتسمّون بالمتجدّدين او المجدّدين وفي اي سبيل يهوون المسير ؟ أيرون ان ننقلب الى القديم (١) . فيجود القول و يستقيم . وتُوقى الوَحدة العربية بصون الأساليب العربيَّة وتَتَرجَّل الأُمة وتتفحَّل من بعد خنَثِها وتأنُثها باستظهار الكلام الفحل الجزل و يتهذب ذوقها بمؤالفة الأقوال المهذّبة المنتقاة وتكون هذه الأُمم العربية في الوجود شيئًا مذكورا . أَيرون هذا ام يضادّوننا فيذهبون الى غير هذا المذهب

الضلالة : لمَ تعني ايها الفتى نفسك باستظهار القول الكثير والعكوف على دواوين الشعراء وعندك كتب المترادفات التي حشدت لك آنق العبارات فذر ما سواها وارجع اما احتجت الى تزوير كلام اوتسطير اسطورة اليها — حذار حذار من الشيطان الليطان ان سمعته يقول لك ذلك واستغشه وايقن انه يبغي ان تستورط في حبالته فان من يتكل على هذه الكتب ولم يقتبس اللغة من شعر القوم ونثرهم لن يظفر ابد الدهر بملكة عربية واذا لم يحصل على هذه الملكة لا يعترف له بالبلاغة معترف وان حشا كلامه بكل فقرة باهرة لما يراه قد اقام الجمل في غير مقامها والبسها غير اثوابها وجاء بكلام كخرزات الاماء او. اقبح مرأى . وان ذلك ليوهن (الحافظة) لانه يُعتاد الاعتماد يوم الانشاء على الامتياح من قلب تلك الكتب التي انما كانت ليرجع اليها عند الحاجة في تحقيق قول

(١) لما اجاب الجرمان داعيَ ارتقائهم في القرن الثامن عشر اتخذوا آداب الاغريق مصابيح لهم فبلغوا اذ ساروا على انوارها مختط البغية واللغتان مختلفتان . والامتان متباينتان

الهَدَويّ ويبري لنا مدارهم[١] قائلين : إنّ الزمان ليضيق عن الإحاطة بالعربية والتوغل في آدابها . وإنّ سنّة ارتقاء اللغات تُخالف شريعة المستمسكين بالقديم وإنّ المعول عليه هو المعنى ليس اللفظ،[٢] وما امر اللفظ عند العلماء بذي بال

واقاويلهم هذه (يا اخا العرب) اضاليل وأباطيل والباطل مُضمحلّ فلا تغرنّك جولتُه . وللحق الحكم في كلّ حين فاسمع حكمَهُ

***

أَمَّا قولهُم إنّ الزمان لَيضيق عن التضلّع من العربيّة والأستبحار فيها فهو قولٌ عجب يُترجم عن عجز في النفس وعن جهل . وإني لا أَدرِ[٣] كيف يبغون أَنْ يبلُغَ الفتى ويفصحُ[٤] . ويبذّ الأقران ويبرُع . ويبطش في العلم بارحب باع . ويحلّ منه في القَبَل اليَفاع[٥] . وهو لم يَدأَبْ ولم يشقَ «ولم يطلْ وقوفه في الشمس ليطولَ وقوفه في الظلّ[٦]» ومن

---

(١) جمع مدره زعيم القوم والمتكلم عنهم
(٢) في شرح الكافية : « ليس تكون عاطفة كلا قال : انما يجزي الفتى ليس الجمل»
(٣) قال سيبويه :«فما حذف واصله في الكلام غير ذلك لم يك ولا ادرِ واشباه ذلك»
(٤) يبلغ ويفصح يكون بليغاً فصيحاً
(٥) القبل راس كل اكمة
(٦) قال (الكامل) : «نظر رجل الى روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب واقفاً بباب المنصور في الشمس فقال: قد طال وقوفك في الشمس فقال روح : ليطول وقوفي في الظل»

الذي أنبأَهم أنّ الإجادةَ في المقال قريبة المنال. وأنّ احداً تربّع في دَست العُلا وهو هاجع. وأَحرز خَصْلَ[١] الترامي وهو في بيته قابع. ونظرت اليه العيون. وأومأت اليه الأصابع. وهو ساكن وادع. والدهرُ يقول: لن تُنال الراحةُ إلاّ بالتعب. ولا بُدَّ دون الشهد من إبر النحل ومقاساة السُلاّء[٢] قبل الظفر بالرّطب. ويُنشد قولَ حبيب:

« قد علمنا ان ليس الا بشق النفس صار الكريمُ يُدْعى كريما »
« طلبُ المجد يُورث المرْءَ خَبْلاً وهموماً تُقَضْقِضُ الحيزوما[٣] »
« فتراه وَهْوَ الخلي شجيـاً وتراه وَهْوَ الصحيحُ سقيما »

والأديبُ العربيّ[٤] وإنْ كدّ روحه واسهر لياليَه في اقتباس ادبه إلا أنَّه لم يُضارعْ في الجِدّ أخاه الأَديبَ الغربيّ الذي لن يؤثر له قول.

---

(١) الخصل الخطر الذي يخاطر عليه في النضال وما يتقامر عليه

(٢) شوك النخل

(٣) الخبل الجنون. تقضقض تكسر. الحيزوم وسط الصدر

(٤) في الكليات: « كل مبتدا عقب بان الوصلية فانه يؤتى في خبره بالا الاستدراكية او بلكن لما في المبتدا باعتبار تقييده بان الوصلية من المعنى الذي يصلح الخبر استدراكاً له واشتمالاً على مقتضى خلافه »

وجاء في الكليات: « الفاء في خبر المبتدا المقرون بان الوصلية شائع في عبارات المصنفين مثل زيد وان كان غنياً فهو بخيل ووجهه على ان يجعل الشرط عطفاً على محذوف والفاء جوابه والشرطية خبر المبتدأ وان جعل الواو للحال على ما يراه الزمخشري والشرط غير محتاج الى الجزاء فاشبه الخبر الجزاء حيث قرن بالمبتدا الشرط »

ولن يطنَّ له في قومه ذكر حتى يُثخِنَ (١) لغته معرفةً وحتى يفقه إحدى اللغتين القديمتين اللتين نجلتا لغاتِ المغرب ونفختا فيها من روحهما وهما الأغريقية واللاطينية (٢). وكل أَديب استخف بهما ولم يعكف طويلاً عليهما فلا يُعبأ له بقول

فالأديبُ العربيّ أَحسن حالاً من الأديب الغَرْبيّ وأَهدأ بالاً وأَقلُّ نصباً اذ ليس قُدَّامه إلا لغةٌ واحدةٌ . وهذه وإنْ صعُبَتْ لكن بعضُ لغات المغرب أَصعب منها فانّ الجرمانيَّة صعبةٌ أَيُّ صعبة ولكن قد هوَّنَ جمالُها على خاطبها خطبَ صعوبتها . والصعوبةُ في اللغات دليل خير ودليل سمو . ومن كلام أَحد الأئمة: «اركب الآذيّ (٣) تشربِ الماذيّ (٤)»

وقد رأينا العالم الجرماني المشهور (ستورس) ينعى على الناس استحبابَهم الافرنسية على لغة (غوتي) ولغة الامَّة الوَسَط والفينا العالم الافرنسي (لتريه) يظاهر ذاك الرجل في تفخيمها . ويجهر بحبه اياها .

---

(١) يقتلها علما
(٢) يكتب ابن خلدون وغيره هذه الكلمة كماترى. ويبدل بعضهم اليوم التاء من الطاء
(٣) موج البحر
(٤) العسل

ويعترف بخصائصها المشهورة وان لم يدر في خلده (كما قال) ان يحسدها لبراعتها ويؤثرها على لغته

فليتأسَّ العربيّ بالغربيّ وليقتدِ في الكَدْح لحِذقِ لغته به · ولا يَهُلْ ولا يَنهَل [1] أمامَ كلّ صعوبة يلقاهــا فالأمر جِدّ · وما هو بالدّد [2] · وليس لراغبٍ في العلم عن العناء الطويل محدّ [3] ولكن « من طلب شيئًا ناله · ومن جدّ وجد · ومن أدمن قَرْعَ الباب ولَجّ ولج » « وقد حدّث الفضلُ بن سعيد قال : كان رجل يطلب العلم فلا يقدر عليه فعزم على تركه فمرّ بماءٍ ينحدر من رأس جبل على صخرةٍ قد أثَّرَ فيها فقال الماء على لطافته قد أثَّرَ في صخرة على كثافتها والله لاطلبن · فطلب فادرك »وقال بعضهم :

« اطلبْ ولا تضجرَ من مطلب ... فآفةُ الطالب ان يضجرا [4] »
« أَما ترى المـاءَ بتكراره ... في الصخرة الصمَّاء قد أثَّرا »

---

(١) مستعار من انهيال الرمل وعدم تماسكه

(٢) اللعب وفي الحديث : « ما انا من دد ولا الدد مني » ولامه محذوفة كلام الغد وقد جاء هذا على اصله في قول لبيد :

وما الناس الا كالديار واهلها ... بها يوم حلوها وغدواً بلاقع

(٣) بد ومحيد

(٤) قال ابن هشام في مغنيه :« واما قول بعضهم في قول القائل : (اطلب ولا تضجر من مطلب) ان الواو للحال ولا ناهية فخطأ وانما هي عاطفة إما مصدراً يسبك من ان والفعل على مصدر متوهم من الامر السابق اي ليكن منك طلب وعدم ضجر او جملة على جملة وعلى الاول ففتحة تضجر اعراب ولا نافية وعلى الثاني فالفتحة للتركيب والاصل ولا تضجرن بنون التوكيد الخفيفة فحذفت للضرورة ولا ناهية »

ومن أَجل صعوبة العلم او الأدب كان العلماء والادباء من السلف الصالح « يتوسلون اليه (كما قال البديع الهمذاني) بافتراش المدر [١] . واستناد الحجر . ورد الضجر . وركوب الخطر . وادمان السهر . واصطحاب السفر . وكثرة النظر . واعمال الفكر . ويحملونه على الروح . ويحبسونه على العين . وينفقون من العيش ويخزنون بالقلب . ويحررون بالدرس . ويستريحون من النظر الى التحقيق . ومن التحقيق الى التعليق [٢] »

ومن أَجل ذلك قال فلوبير احد أُدباء الافرنج : إِن قنطرة [٣] المرء وسكناه قصراً بندقياً [٤] منجّداً [٥] أَهونُ عليه من ان يُنشئَ صفحة واحدة عبقريّة [٦]

وهأَنذا أَتلو عليك طائفة من أَنباء بعض الأُدباء والعلماء لاريكَ إِفراط كدحهم في اقتناص أَدبهم . واقتباس علمهم فسمَعك [٧] اليّ :

قال بعضهم : دخلت بيت ارثر شوبنهور فرايت خزانة فيها اربعة آلاف كتاب قد وعاها كلّها قلبُه . وذكر ابن خلّكان « أنه حصلت لابي

---

(١) التراب المتلبد
(٢) ذكر البديع هذا القول في مقامة العلم واورده مزيداً فيه في احد كتبه
(٣) قنطر الرجل ملك مالاً كثيراً كانه يوزن بالقنطار
(٤) نسبة الى مدينة ايطالية
(٥) مزين مزخرف
(٦) فائقة
(٧) تقول لمن تحدثه سمعك الي

زكريا التبريزي نسخة من كتاب التهذيب في اللغة تأليف ابي منصور الازهري في عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها واخذها عن رجل عالم باللغة فدُلّ على المعريّ فجعل الكتاب في مخلاة وحملها عَلَى كتفه من تبريز الى المعرة ولم يكن ما يستأجر به مركوباً فنفذ العرق من ظهره اليها فأثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف ببغداد واذا رآها من لا يعرف صورة الحال فيها ظنّ أنها غريقة وليس بها الا عرق الخطيب المذكور »

وحكى : « ان ابا بكر الخوارزمي (١) قصد حضرة الصاحب وهو بارّجان فلما وصل الى بابه قال لاحد حجابه : قل للصاحب على الباب أحد الادباء وهو يستأذن في الدخول فقال الصاحب قل له قد الزمت نفسي ألاّ يدخلَ عليّ من الادباء الا من يحفظ عشرين الفَ بيت من شعر العرب فخرج اليه الحاجب واعلمه بذلك فقال ابو بكر ارجع اليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال ام من شعر النساء . فدخل الحاجب واعاد عليه ما قال فقال الصاحب هذا يكون ابا بكر الخوارزمي فاذن له في الدخول فعرفه وانبسط له »

وقال ابو نوأس (٢) « ما قلتُ الشعر حتى حفظت شعر ستين امرأة خلاف الرجال »

---

(١) قالت اليتيمة : « ابو بكر الخوارزمي باقعة الدهر . وبحر الادب . وعلم النثر . وعالم الفضل والظرف . كان يجمع بين الفصاحة العجيبة . والبلاغة المفيدة . ويحاضر باخبار العرب وايامها ودواوينها . ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر . ويتكلم بكل نادرة ويأتي بكل فقرة ودرة ويبلغ في محاسن الادب كل مبلغ »

(٢) قال البحتري : « لو قُسم احسان ابي نؤاس على جميع الناس لوسعهم . وقال غيره : حلّ أبو نؤاس من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بلا اذن »

ورُوي : « ان حبيباً (١) كان يحفظ اربعة عشرَ الفَ ارجوزة غير القصائد والمقاطيع وان أَبا الطيّب (٢) كان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها ولا يُسأَل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر» .

وقد خلَد شعر الأَول والثاني لما انهما قد ايقنا بان لن يُبرّزا على غيرهما وينزلا حيث نزلا حتى يُحالفا العناء والصبر . ويُنفقا في سبيل العلم أَفضل العمر . وقد قال الطاءيّ الأَكبر :

« ولكنني لم أحوِ وفراً مُجَمَّعاً ... ففزتُ به الا بشمل مبدَّد »
«ولم تعطني الأيامُ نوماً مُسكّناً ... أَلذّ بـه الا بنوم مُشَرَّدِ»

وقال المتنبي او المتنبه كما تسميه المغاربة :

---

(١) ذكر الاديب الكبير الاستاذ خليل بك مردم بك العضو بالمجمع العلمي العربي في كتابه (شعراء الشام في القرن الثالث) : « ان ابا تمام قال عن نفسه : لم انظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال »

قال البحتري : « انا تابع لابي تمام . آخذ منه . لائذ به . نسيمي يركد عند هوائه . وارضي تنخفض عند سمائه . وقال بعضهم : حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها . ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة . او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفاً على دينه»

(٢) قال ابن رشيق في عمدته : «جاء ابو الطيب فملا الدنيا وشغل الناس . وكان ابو العلاء المعري اذا ذكر الشعراء يقول : قال ابو نؤاس كذا . قال البحتري كذا . قال ابو تمام كذا . فاذا اراد المتنبي قال : قال الشاعر كذا تعظيما له»

« دعيني أنلْ ما لا يُنال من العــلا

فصعبُ العلا في الصعب والسهلُ في السهلِ »

وذكر ياقوت في معجم الأُدباء : ان اباعلي القالي املى في قرطبة اكثر كتبه عن ظهر قلبه · منها كتاب الامالي معروف بيد الناس غاية في معناه »

وجاء في كتاب نزهة الألباء : « قال سلمة أملى الفراء كتبه كلها حفظاً لم ياخذ بيده نسخة الا في كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار الكتابين خمسين ورقة وكان يقال : الفراء أمير المؤمنين في النحو »

وقال ابو اسمعيل بن القاسم : « كان ابو بكر الانباري يحفظ ثلثمائة الف بيت شاهد في القرءان · قال ابو الحسن العروضي قلت لابي بكر الانباري قد اكثر الناس في حفظك فكم تحفظ قال احفظ ثلاثة عشر صندوقاً [1]»

« وكان الشاطبي يحفظ وِقر بعير من العلوم بحيث لو نزل عليه ورقة لما احتملها »
« وأملى المطرز الياوردي من حفظه ثلثين الف ورقة»

« وكان ابن دريد (صاحب المقصورة) واسع الرواية لم يُر احفظ منه وكان

---

(١) قال حمزة بن محمد بن طاهر الدقاق : « كان ابو بكر الانباري يملي كتبه المصنفة ومجالسه المشتملة على الحديث والاخبار والتفاسير والاشعار كل ذلك من حفظه واملى كتاب غريب الحديث قيل انه خمسة واربعون الف ورقة وكتاب الهاءات نحو الف ورقة وكتاب شرح الكافي قيل نحو الف ورقة وكتاب الاضداد وما الف في الاضداد اكبر منه وشرح الجاهليات سبعمائة ورقة وكتاب المذكر والمؤنث ما عمل احد اتم منه وعمل رسالة المشكل »

يُقرأ عليه دواوين العرب فيسارع الى إتمامها »

وإن من يتلو كتب الاستاذ الأكبر (ارنست هيكل [١]) يدهش

---

(١) فجعت الدنيا بهذا الامام القائد المجاهد منذ بضع سنين وقد كان هجيراه في حياته بث الحقيقة في كل مكان . والجهر بها في كل حين . والاهابة بالناس اليها وحوشهم عليها . ومقارعة خصيمها الباطل ومصارعة نصرائه (وجل القوم نصراؤه) ولم يك لتهوله دهماؤهم . ولم يك ليخشى صولة الصائل وسلطان ذي السلطان

ولما جاء القول الدرويني الى الاقاليم الجرمانية وقرته علماؤها المقت والمهزأة اكرم الاستاذ مثواه وافشى فضائله وخصائصه في الجمهور . وكدح في تهذيبه وتنقيحه . وقد كان يطلبه وهو غلام لم يفع ويستهدي استاذه (جان ملر) فيه . فلو لم يأتلق هذا الضياء في الاصقاع الانكليزية لانبلج في الامصار الجرمانية وكان الاستاذ صاحب المقالة الدروينية . فما دروين او سبنسر بافقه منه ولا صارحتهما الطبيعة بامر كتمته اياه . ولقد استقرى من دقائق العلم ما لم يستقرياه واكتنه ما لم يكتنهاه

ولولا الاستاذ لم يصر مذهب النشوء الى الذي صار اليه . ولم تزل ريب . ولا دحضت شبهات . ولا وضحت مشكلات . ولا كشف الحجج المموهة في معضلات الوجود كاشف

فهذا الامام هو الذي خلص ما التبس . وانار ما اظلم . وعلمنا ما لم نكن نعلم . وهو الذي اوضح ان النفس الانسانية هي وليدة النفس الحيوانية نفس الحيوانات اللبن . فانها طلعت من هنالك ولم تبرح تتعالى حتى انتهت الى حيث لقيناها . فليست النفس وليس صاحبها بفريقين متضادين : هذا خالد وذاك بائد وانما هما شيء واحد . وما النفس الا حادث طبيعي وانه لم تستأثر بها الاناسية . وتعرى منها الحيوانات المرتقية . ولكن قد اخذ كل قسطه والاقساط تختلف . « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » وهذا الامام هو صاحب القول بالوحدة (monisme) وصاحب نحلتها التي شادها على ثلاث قواعد — الفضيلة والحقيقة والجمال — واتخذ الكون كله اجمع معبدها « ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله »

وهذه النحلة وصلة بين العلم والدين . تطمئن فيها نفوس المتحررين . فلا يتلهفون على الذي قد ذهب

ويستعظم روايته وتبحره في العلوم والفنون · وعلمه (لله هو) علم احاطة[1] وإنه إنْ ينسَ قطينُ الأرض أكابر العلماء بعد أحقاب فأمثال ذلك (الاستاذ) في نعيم الذكر خالدون ما كرَّ الفتيان[2] · وما دام في البحر ماء · وفي الشمس ذكاء[3] · لأنه ان رسخت[4] أمواه البحر وسوف ترسخ · وهمدتْ نيرانُ الشمس ولا بُدَّ ان تهمُد هلك الناس[5] ففقدت الأرضُ ذلك الفكرَ المدركَ المضيء في ظُلُمات لياليها · وإنّه (لعَمرُ أبيك) خيرُ ما فيها · لا بل هو كلّ ما فيها (كما يقول العلامة بوانكره)

فاعلم من بعد ذلك (انه لن يُعطيك العلم والادب الا على حساب ما تعطيهما من نفسك) ولن يجودا وانت بأنصابها ضنين · وقد كان الامام ابو يوسف يقول: « العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك · وانت

---

(١) علم الشيء علم احاطة اذا علمه من جميع وجوهه
(٢) الليل والنهار
(٣) ذكت النار اشتد لهيبها
(٤) نشت ونضبت
(٥) يعزّي الحكماء (يا فتى) أنّ الاجل بعيد جدّ بعيد وان حياة تستمر في غير الكرة الارضية في سيارة من هذه السابحات في الفلك . ولكل قطين سيارة اجل «والدنيا دول»

اذا اعطيته كلك من اعطائه البعضَ على غرر »

وكيف ترجو ان تسود القبيلة « ولم تبذل لها مالك . ولم تمتهن في حاجتها نفسك . ولم تكفّ اذاك ولم تنصر مولاك » ولم تشق

و « لو لا المشقةُ ساد الناسُ كلُّهمُ »

وكيف تعلو همتُك الى ان تنبُلَ (١) ولم تنبُلْ (٢) للنبل نباله . وكيف تبغي ان تلحق الفحول وأَنت أَسيرُ شهوتك . وعبد لهوك . وحليف نومك وصريع الكاس والأعين النجل والمفتون بالاعذبين (٣) وخصيم القائل في مذهبه :

« سهري لتنقيح العلوم أَلذُّ لي ... من وصل غانية وطيب عناقِ »
« وتمايلي طرباً لحلّ عويصةٍ ... أَشهى وأَحلى من مُدامة ساقِ »
« وصريرُ اقلامي على اوراقها ... أَحلى من الدوكاه والعشّاقِ »
« وأَلذُّ من نقر الفتاة لدُفّها ... نقري لأُلقي الرَّمْلَ عن اوراقي »

---

(١) تشرف وتفضل

(٢) نبل للامر نباله اخذ له اهبته قال كثير في عبد الملك :
« وكنت اذا نابتك يوماً ملمة ... نبلت لها ابا الوليد نبالها »

(٣) الخمر والرضاب . والرضاب الريق المرشوف

«أأبيتُ سهران الدُّجى وتَبيته ُ نومًا وتبغي بعد ذاك لحاقي»

وقارضُ[(١)] هذه الأبيات هو محمود الزمخشري الذي رزق السعادة في تعاطي العربية وهو صاحبَ (الكشاف) الذي يقول فيه

«إنَّ التفاسير في الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمري مثل كشافي»

«إنْ كنتَ تبغي الهدى فالزم قراءتَهُ
فالجهلُ كالداء والكشافُ كالشافي[(٢)]»

---

(١) قرض الشعر قاله والقريض الشعر فعيل بمعنى مفعول لانه اقتطاع من الكلام

(٢) ذكر ابن خلدون كشاف جار الله في موضعين من (مقدمته) المشهوره واثنى عليه ورغب في مطالعته غير انه حذر من مقالاته الاعتزالية في تفسيره الايات

والاختلاف الكبير بيننا وبين المعتزلة في امر الاختيار والجبر. جاء في شرح المقاصد: «اتفقت المعتزلة ومن تابعهم من اهل الزيغ على ان العباد موجدون لافعالهم مخترعون لها بقدرهم. واجترأ المتاخرون فسموا العبد خالقا على الحقيقة»

واصحابنا لا يرون ما تراه جماعة عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء والجاحظ واشكالهم فلا يقولون «بقدرة العبد وحدها وبالاستقلال والاختيار التام»

والاصحاب هم الصيبيون واعطاؤهم الفتى (الجزء الاختياري) تجاوز في الجود فان اكثر المحققين الاروبيين (جبريون خلص) قد سلبوا الناس ذلك الجزء في الاختيار وغادروهم في الحياة مقسورين. وقلَّ فيهم (الجبري المتوسط) وشواهد الجبر في كل يوم لا تعد

على ان سوف يتخلص المرء (من بعد ان تتبدل الجبلة. وتستحيل الحالة) من عبوديته. ويرجع بحريته. فياتي ما يريده. ويذر ما لا يريده ويديل الدهر الاختيار من الاجبار. و«لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون»

ولعمري إنّ نعته لصادق · ومن يغُص في بحر هذا الكتاب يرَ من العجائب ما يرى « وما غاص أحد في (الكشاف) غوصة الا اخرج دُرَّة »

وإنّ لذّةَ أبي القاسم الذي عاديتَ مذهبه وصافيت سواه

و« ضروبُ الناس عشاقٌ ضروبا[1] »

إنّ لَذّة (جار الله) لتعلو كلّ لذّة · وإن اغتباطه[2] بالعلم لينسخ كل اغتباط بغيره · وان سعادة الأُدباء هي السعادة · وإنّ هناء العلماء هو الهناء · وقد قال عليّ بنُ الجهم :

« لجَلسة معْ أَديبٍ في مذاكرة أَنفي به الهمّ او استجلب الطربا »
« أشهى اليّ من الدنيا وزُخرفها وملِئها فضةً أو ملئها ذهبا[3] »

وقيل لبعضهم : « فيمَ لذتك ؟ قال : في حجـة تتبختر اتضاحا · وشبهة

---

(١) هذا صدر بيت للمتنبي عجزه : (فاعذرهم اشفهم حبيبا) قال العكبري شارح ديوان ابي الطيب : اي ان انواع الناس على اختلافهم يحبون انواع المحبوبات على اختلافها فاحقهم بالعذر في العشق من كان حبيبه افضل

(٢) سروره

(٣) قال بعضهم : « مذاكرة الادباء الاصدقاء امتع من نسيم السحر المعطر بريا الزهر »

تتضاءل افتضاحا . وقيل لضرار بن عمرو ما السرور ؟ قال اقامة الحجة . وادحاض[١] الشبهة . وقيل لآخر ما السرور ؟ قال ادراك الحقيقة . واستنباط الدفينة »

وقال ابو المعمر يحيى العلوي وكان من اهل الأدب والسؤدد :

« حسودٌ مريض القلب يخفي أنينه
ويُضحي كئيب البال عندي حزينَهُ »
« يلوم على أنْ رحتُ للعلم طالباً
أُجمّع من عند الرواة فنونَهُ »
« ويزعُم أنّ العلم لا يكسِبُ الغنى
ويُحسِنُ بالجهل الذميم ظُنونَهُ »
« فيا لائمي دعني أُغالي بقيمتي
فقيمةُ كلّ الناس ما يُحسنونَهُ »

وروى الامام الجاحظ في كتابه البارع في الأدب « أنّ ابن الجهم قال : اذا غشيني النعاس في غير وقت نوم وبئس الشيء النوم الفاصل عن الحاجة فاذا اعتراني ذلك تناولت كتاباً من كتب الحكم فاجد اهتزازي للفوائد . والاريحية التي تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعز التبيين اشد ايقاظاً من هدّة الهدم[٢] . وقال : اذا استحسنت الكتاب ورجوتُ منه الفائدة فلو تراني وانا ساعة بعد ساعة انظر كم بقي من ورقه مخافة

---

(١) ابطالها ودفعها
(٢) صوت وقع الحائط ونحوه

استنفاده وانقطاع المادة من قلبه وان كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق فقد تمّ عيشي

وذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال : لولا طوله وكثرة ورقه لنسخته . فقال ابن الجهم : ما رغّبني فيه الاّ الذي زهّدك فيه وما قرأت قط كتاباً كبيراً فاخلاني من فائدة وما احصي كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت

وكان ابو حسن اللؤلئي [1] يقول : غبرتُ اربعين عاماً ما قِلتُ [2] وما بِتُّ الاّ والكتابُ موضوع على صدري »

وجاء في كتاب الجاحظ :« الانسان **لا** يعلم حتى يكثر سماعُه ولا بد ان تكون كتبه أكثر من سماعه . ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الانفاق عليه من ماله الذ عنده من الانفاق من مال عدوه . ومَن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من عشق القيان [3] لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيّاً . وليس ينتفع بانفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب ايثار الأعرابيّ فرسه باللبن على عياله وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الاعرابي في فرسه »

وقال اديب افرنجي : سعادتي في ان احب وابدع وافكّر

وكتب كونود الى أُمّه : في الفن هناء حق ومعه ما يُسلي

---

(١) كرسي الهمزة الثانية ياء

(٢) نمت في القائلة وهي نصف النهار

(٣) القينة الامة المغنية وقيل الامة مغنية كانت او غير مغنية

صاحبه عن كلّ شيء وإن فتىً لهِجٌ بفنه وعلمه وافكاره لسعيد مغبوط

وقال عالم افرنجي : إنّ التعب والأرق والقلق إنّ كلّ ذلك[١] لا يضعفني وقت غوصي على اسرار العلم بل يضاعف قوى نفسي وقلبي وجسمي . وان جوانحي لتمتلئ حبورا

وقال غوتي : لا اجد السرور الخالص الا حين اكتب

وروى بعضهم . أنّ دودي كان يغشاه من السرور اذا علِق[٢] يكتب ما يعجز البليغ عن وصفه وكان ينسى نفسه ويسير مع مبحثه طويلا لا يصدفهُ عنهُ شيء ولا يقِفهُ حبر في الدواة نضب او قلم تشعّث[٣] رأْسه او كُسِر

وكان كبلر العالم الفلكي يجهر بان زخرف الدنيا جميعهُ لا يعادل عنده غبطته بأكمال عمله العلمي

---

(١) قال الرضي : « يشار بما للواحد الى الاثنين كقوله تعالى (عوان بين ذلك) والى الجمع كقوله تعالى (كل ذلك كان سيئه) بتاويل المثنى والمجموع بالمذكور »

(٢) علق مثل طفق من افعال الشروع

(٣) تشعث رأس القلم انتفش طرفه وساء خطه

وقال عالم افرنجي : إِنّ الحب (١) والفنون والعلوم لتنقل اهلها من حال الى حال وتنتاشهم من مهاوي الحياة البائسة وترفعهم مكاناً عليّاً . وهي ينبوع حبور المرء

وقال فلوبير المتشائم : إِنْ شئت أَنْ تُنجيَ نفسك من شقائها فهِمْ في حُبّ الفن واذهل عن غيره

وقال بعضهم : تعز عن كلّ شيء بالحب والعلم والفن

وقال بتهوفن : يقدر الملوك والامراء ان يأتوا ما يهوون ولكنهم لا يستطيعون ان يخلقوا مثل غوتي وبتهوفن فيجب عليهم اذاً ان يرجّبونا (٢) ويعرفوا مقدارنا

وقال بعضهم : انّ النور المضيء في ادمغتنا لَيهدينا الى سبل من السرور العامّةُ عماةٌ عنها وإِن الشاعر والمتفنن والمفكر والعالم

---

(١) قال ميشيل انج : للحب قدرة على ان تجعل نفس المرء كاملة
« وقال بعضهم لسعيد بن مسلم ان ابنك قد احب فقال دعوه فانه يلطف وينظف ويظرف »

(٢) رجبه هابه وعظمه

ليعرفون من الابتهاج فنوناً لا يدريها الناس

ولقدعرف هذه الضروب نابغتنا الخليل[١] بن احمد الفراهيدي « الذي أقام في خُصّ[٢] من أخصاص البَصرة لا يقدر على فَلسين واصحابه يكسبون بعلمه الاموال وهو زاهد فيما يرغب فيه »

وكان استاذ سيبويه يقول وناهيك بالذي ابو بشر خرّيجه : « اني لأُغلق عليّ بابي فما يجاوزه همي » « وقد اكتفى من دنياه بِطمريه[٣] . ومن طُعمه بقرصيه » ولسانُ حاله ينشد قول الامام الشافعي :

« عليّ ثياب لو يباع جميعها
بفَلس لكان الفلس منهنّ اكثرا »
« وفيهن نفسٌ لو تُقاس بمثلها
نفوسُ الورى كانت أعزّ واكبرا »

وعرف هذه الضروب ايضاً أَديبُنا شيخُ المعرّة رهين

(١) قال الشريشي : « كان الخليل من ازهد الناس واعلاهم نفساً واشدهم تعففاً . ولقد كان الملوك يقصدونه ويتعرفون اليه لينال منهم فلم يكن يفعل . وقال النضر ما رأى الراءون مثل الخليل ولا رأى الخليل مثل نفسه . وجاء في (المزهر) قال ابو محمد التوجي : اجتمعنا بمكة ادباء كل افق فتذاكرنا امر العلماء حتى جرى ذكر الخليل فلم يبق احد الا قال : الخليل اذكى العرب وهو مفتاح العلوم (قال ابو الطيب) وابدع الخليل بدائع لم يسبق اليها فمن ذلك تاليفه كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمى كتاب العين واختراعه العروض »

(٢) بيت من شجر او قصب

(٣) الطمر الكساء البالي

المحبسين[١] الذي اجتوى لذات الدنيا وعاش حصوراً[٢] عزيباً[٣] فلم تصدفه عن ادبه ظعينة[٤]

« شغلتْ قلبَنا حسانُ المعالي عن حسان الوجوه والأعجازِ »

ولم يُذهله عنهُ مال ولا بنون و« المالُ والبنون زينةُ الحياة الدنيا »

« يقولون : إنَّ المرءَ يحيا بنسله
وليس له ذكر اذا لم يكنْ نَسْلُ »
« فقلت لهم نسلي بدائعُ حكمتي
فان لم يكن نسل فإنّا بها نَسْلُو »

وقد وجد الخليل والمعري في العلم والأدب من الهناء الذي وجداه فاعرضا عن العرض[٥] الحاضر · ولهِيا عن زخرف الدنيا المُتَنافس فيه · ولم يطَّبِ[٦] قلبهما شيءٌ يروق العين من هذا الكون · ولزما بيتهما

---

(١) قال ابن خلكان سمى ابو العلاء نفسه رهين المحبسين للزومه منزله ولذهاب عينيه

(٢) الذي لا يقرب النساء

(٣) من لا اهل له

(٤) زوجة

(٥) العرض حطام الدنيا واسم لما لا دوام له ومن اقوالهم : «الدنيا عرض حاضر . يا كل منه البر والفاجر»

(٦) لم يدعُ

« وجنّةُ المؤمن دارُه » واستأنسا بوَحدتها واستوحشامن الناس · والعزلةُ في كل زمان حليفة المفكرين · وخِدْنُ[1] المتفننين · قال يحيى بن معاذ الرازي احد رجال الطريقة : « الوحدة جليس الصديقين»

وقال افرنجي : اجمل ما في المرء تفكره الصامت

وليست الآثار الجليلة الا ابنة العزلة التي تقتاد اليها النفوس الكبيرة· وقد ذكر بعضهم ان ليو بردي كان صديق نفسه

«خليلك أَنت لا من قلت خلّي وإن كثر التجمّلُ والكلامُ »

وكان مفتتناً بصحبة كتبه وكان اذا زايل وَحدَتَهُ واجال نظره في الناس اقتحمت عينُه ما يشهده

« ان شئت ان يسود ظنك كلُّه فأجْلهُ في هذا السواد الاعظمِ[2]»

« ما اكثر الناسَ لا بل ما اقلّهمُ أَللهُ يعلمُ اني لم أَقلْ فَنَدا[3]»

« اني لأغمض عيني ثم افتحها على كثيرٍ ولكن لا أَرى أَحدَا »

ووصيّة فردريك نتشه (دروين الآداب) في الهرب من الذباب

---

(١) الخدن الصاحب يقع على الذكر والانثى
(٢) السواد الاعظم جماعة الامة
(٣) الفند الخطأ والكذب

الطنّان او المجامع العامة معلومة · وكان هذا الرجل لا يرى من يُداخل الناس كثيراً ولا يُؤْثر على ملابستهم عزلتَه ذا رأْي رصين

وقال غوتي : مَن اراد ان يكون حراً فليقبع[1] في بيتهِ ·

وقال المعري :

« في الوحدة الراحة العظمى فأحيِ بها
قلباً وفي الكون بين الناس أثقال »

وقال بعضهم : الأَديب اللاهج بمخالطة الناس مضيعٌ كينونته وانّ من ابتغى ان يعرفه هذا وذاك ويبجّله فلان وفلان او يدنيَه ملك او كبير من ناديه إنه لأحمق رقيع[2]

وقال افرنجي آخر : إنّ السرور في ان تكون منكوراً[3] غيرَ مذكور لسرورٌ عظيم لا يستمرئهُ الا النفوسُ الكبار

---

(١) يقبع يتوارى
(٢) قال ابن ابي الحديد ، « فان قيل فما قولك في شهرة الانبياء والائمة (عليهم السلام) وأكابر الفقهاء المجتهدين قيل ان المذموم طلب الشهرة فاما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم بل لا بد من وجود انسان يشتهر امره فان بطريقته اصلاح العالم ومثال ذلك ان الغرقى الذين بينهم غريق سابح ضعيف الاولى به الا يعرفه احد منهم لئلا يتعلق به فيهلك ويهلكوا معه فان كان بينهم سابح قوي مشهور بالقوة فالاولى الا يكون مجهولا بل ينبغي ان يعرف ليتعلقوا به فينجو هو ويتخلصوا من الغرق بطريقته »
(٣) المنكور المجهول غير المعروف

وقال صاحب اللزوميات :

« وخمول ذكرك في الحياة سلامةٌ ودهاك من أمسى لذكرك ناشرًا »

وقال الفضيل : « من سخافة عقل المرء كثرة معارفه »

وقال عالم عربي : « انما يستوحش الانسان من نفسه لخلو ذاته[1] عن الفضيلة فيتكثر حينئذ بملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بهم فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوَحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة »

وقال صاحب الكشّاف : « طِبْ عن زيارات الناس نفسًا . ولا ترضَ سوى الوحشة انسا . ولا تنشَط الا الى زائر ان ضلّلت عن المحجة أرشد . وان أضللتَ الحُجة أنشد »

وقال لروميكير : انا لا أُحب ان اظهر ولكن لا اسعى في ان اختفي

والأديبُ او الحكيم إنْ هجر الناس فقد صاحبتهم اقواله وآثاره ودلتهم على سبل الخير . ولو لا هذه الآثار بل الشموس الزاهرة الانوار لأظلمت الدنيا واستمر ظلامها

وإنّ أُولئك العلماء والأدباء الذين قنعوا باغتباطهم بعلمهم وأَدبهم

(١) الذات هنا النفس وهي من الفاظ المتكلمين والحكماء (راجع الصفحة ١٨٦ في الكليات)

وزَهَدوا في هذا الوجود وصرَموا أعمارَهم حلفاءَ شقاء هُم الذين بدّلوا لك الأرضَ غيرَ الأرض . وهم الذين حبَوك هذه المدنيّة التي تستمتع بها . وهذا النعيم الذي تتمرّغُ[1] فيه . وهم في اكواخهم قابعون لا يعرف الناسُ لهم قدرا . وقد هلك جلُّهم معتفدين[2] او منتحرين متبعين قول الذي يدعو الأخيار الى الانتحار عند الشدة[3]

وما قتلهم انفسهم في رأي قوم (وان كان أمراً نُكرا) بجريمة ولا جنون ولا عار كما يقول فريق من الأطبّاء والفقهاء ولكنه الحماسة

---

(١) تتقلب

(٢) اعتفد الرجل اذا اغلق الباب على نفسه ليموت جوعاً ولا يسأل. ولقي رجل فتاة تبكي فقال مالك قالت نريد ان نعتفد

(٣) روى شوبنهور (لستوبي) هذا القول: على الاخيار ان يعتزلوا الحياة اذا استفحل شقاؤهم وعلى الاشرار ان يفارقوها اذا عظم هناؤهم

والقوم في هذا الشأن مختلفون . فنهم من يجبن المنتحر ويضعفه ويتنقص خليقته ويعده مسيئاً الى المجتمع والى نفسه ومنهم من يراه مسيئاً الى نفسه لا الى المجتمع ومنهم من يشجع على الانتحار ويرى ان المرء انما يكون عرضا ولا يكون قصدا فالامر في نفسه له

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين هذا الحديث : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نارجهنم يتردى فيها خالداً مخلداً فيها ابدا . ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها ابدا . ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها ابدا» .

هذه رواية البخاري وفي رواية مسلم تقديم وتأخير واختلاف في اللفظ قليل ولا اختلاف في المعنى .

العبقرية . والشجاعة القَطَرِيّة [١] . وما الخزيُ وما السفهُ وما الأثمُ إلاّ أَنْ يترامى الفاضلُ العظيم الى تلك الحالة الشقاويّة ثم تُطوّع له نفسهُ أَنْ يؤلم عينه برؤية أَحد من هؤلاء الناس الانجاس (شجرة البغي [٢]) كما يسميهم المثلُ العربي . وما الجنون إلا ان يضادّ الحكيمُ دينَ حكمته

---

(١) نسبة الى قطري بن ابي الفجاءة « وكان (كما قال ابن خلكان) رجلاً شجاعاً مقداماً كثير الحروب والوقائع قوي النفس لا يهاب الموت

وفي ذلك يقول مخاطباً نفسه :

اقول لها وقد طارت شعاعا	من الابطال ويحك لا تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم	على الاجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز	فيطوى عن اخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي	وداعيه لاهل الموت داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم	وتسلمه المنون الى انقطاع
وما للمرء خير في حياة	اذا ما عد من سقط المتاع

وهذه الابيات مذكورة في الحماسة في الباب الاول وهي تشجع اجبن خلق الله وما اعرف في هذا الباب مثلها وما صدرت الا عن نفس ابية . وشهامة عربية . وهو معدود في جملة خطباء العرب المشهورين بالبلاغة والفصاحة »

ومن قول قطري :

الا ايها الباغي البراز تقربن	اساقك بالموت الذعاف المقشبا
فما في تساقي الموت في الحرب سبة	على شاربيه فاسقني منه واشربا

وقد ذكر ابو تمام هذين البيتين في (حماسته)

(٢) من امثال العرب : «الناس شجرةُ بغي . قال الميداني : وانما جعلهم شجرة البغي اشارة الى انهم ينبتون وينمون عليه»

ويَمثلَّ ملّةَ هذا المجتمع الذي شِيد على الكذب والضلال كما يراه هنريك ابسن (١)

اولئك الذين حملوا اليك هذا الخير وبنَوا لك مجادل (٢) تلك المدنية الباذخة (٣) ولم ينُعم عليك بذلك ملوكُ الأرض وامراؤها والمقنطرون المترَفون الذين إنما هم كالبهائم همُّها تقمُّمها (٤)

فادر يا فتى بهذا ولا تؤثر على سعادة مصابيح الوجود سعادة وان شِيبت بالشقاء فهناء العلماء والشقاء متآخيان لا يفترقان . واذا لم تصحب

---

(١) هنريك ابسن نابغة البلاد النروجية وصاحب الروايات الفلسفية الاجتماعية التي حمل فيها على المجتمع الانساني الحاضر وعيب سيرته ونظمه وفضحها ودعا الناس الى ان يشيدوا مجتمعاً جديداً على اربع قواعد : الحب في الزواج والحقيقة والاستقلال (استقلال الفتى) وتحرير المرأة

وابسن هذا يضارع فردريك نتشه في الشهرة والمرتبة . والرجلان يتلاقيان في كثير من المذاهب والاقوال وكلاهما هادم بانٍ

وقد كنت قد نشرت منذ اثنتي عشرة سنة بضع مقالات اودعت سيرته في حياته وطائفة من آرائه

(٢) قصور

(٣) العالية

(٤) التقاطها القمامة وهي الكناسة

سعادةَ العظيم آلامٌ فليس ثَمَّ سعادة . وإنه ليمتاح،[1] هناءه من هوايا[2] آلامه وشقائه

وقد قال افرنجي : سقراط متألم خيرٌ من خنزير متنعم

وقال عربي وهو ابو الطيب:

« ذو العقل يشقى في النعيم بعقله »

وقال افرنجي آخر : لقد ضلّ من ظنّ ان الهناء الخالص غيرَ المشوب بالحزن دليلٌ على سلامة الفطرة

وقال عظيم : يا ساعات الآلام أطيلي مكثك عندي فما اجملَك

***

واما زعمهم أَنَّ سنّة النشوء في امر اللغات تباين ديننا فقد بيّن القوم بهذا الزعم أَنّهم لم يفقهوا من ذلك العلم الجليل إلا اسمَه «ولم يعرفوا يد القوس من رجلها »

« اذا ما قتلت الشيء علماً فقُل به ... ولا تقل الشيء الذي انت جاهلُه »

---

(١) امتاح الماء غرفه

(٢) جمع هوية البئر البعيدة القعر

فانّ مذهب النشوء لم يخالفنا ولم نخالفه في حال وهل يشجُع مثلي عَلَى محادّته [١]. وانَّ هذا المذهب الذي يقول : إنَّ كائنات الكون نشأَت نشوءًا وارتقت ارتقاءً لَهْوَ القائل ايضاً : إنَّ العاليَ يسفُل والخطير يحقُر وانَّ الأمة التي تبلغ قُنَّة مجدها . وتكاد تلمس السماء بيدها تتدحرج من القُنة الى أَهضام [٢] الوادي

فاللغةُ العربية تبدلت يوم كانت في الجزيرة ووصلت الى الذي وصلت اليه ثم جاءَ الخط فوَقفَهَا وظَعَنَت أَفاريق من أَهلها عن مرابعهم ولابسوا الاعاجم فكادت العجمة تقتادهم اليها وكاد المعربون يتراطنون [٣] لولا ان جدَّ القومُ في حفظها وروايتها . وقد كانت العربية تمشي منذ ذلك الحين القَهقرى لا اليقدُميّة [٤]

وان المحققين لا يعدون الكلماتِ المشتقة او المولدة او المعربة من

---

(١) مغاضبته ومعاداته
(٢) جمع هضم بطن الوادي
(٣) يتكلمون بالاعجمية
(٤) في الاساس :«وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان ابن ابي العاص مشى التقدمية وان ابن الزبير مشى القهقرى . وتقديره مشى المشية المنسوبة الى قول الناس يقدم او تقدم كما قيل كنتي في النسب الى كنت»

الانتخاب الطبيعي بل من الانتخاب الصنعي [١] (Selection artificiel) كما أنهم لا يقيسون الشؤون الأدبية على الشؤون العلمية فإنَّ اللغات إذا صارت بعد السير المديد الى ما قُدّر لها وقفت . وانَّ الشاعر لينبغ في أُمة ثم لا يجود الدهر بشبيهه ابدا

فهذا هوميرُ قد جاء منذ آلاف من السنين ثم لم يرَ العالم هوميراً آخر

وهذا شكسبير في أُمة الانكليز السكسونيين قد ظهر منذ أَربعمائة سنة ثم لم يخلفه فيهم خليفة

وهذا دنتي تجلّى على الدنيا منذ قرون ثم لم يصُت في ابناء خلفاء الرومان صائت يحاكيه

وهذان الشاعران غوتي وشلّر جاءا في حين واحد وقد هُذّبت

(١) الانتخاب الصنعي في اللغة ضروري أيّ ضروري . وقد عول عليه العلماء الحكماء من السلف الصالح في القرنين الثالث والرابع وغيرهما . وهذه كتبهم الخالدة في العلم والحكمة شاهدة . ولكن ليس لكل ان ينشئ (مصنعاً) لغويا ثم يجعل يقذف بالجملة او الكلمة المسوخة المشيئة . فالمقصود في الدنيا الخير لا الشر والحسن لا القبيح والجيد لا الرديء وان هناك لحسناً وان هناك لقبحاً . وان هناك لرصانة وان هناك لسخافة ولا يجادل العاقل في ذلك ولا يرى الاشياء المتباينة متساوية الا فاقد التمييز

الجرمانية فقالا وابدعا ثم لم ينجم من بعدُ عديل لغوتي او شلّر

وقل مثل هذا في فن الموسيقي والتصوير وفي النابغين فيهما لان ذلك صنع الطبيعة والجود به بيدها فمتى أرادت جادت . وقد حكى أمرُ الكتب العبقرية حالَ النابغين العباقرة فان هذه الكتب لا تصنّف ولا تلفّق إن هي إلا وَحيٌ طبيعيّ يُوحى (١)

***

وأمّا قولهم : إنَّ المعوّل عليه هو المعنى لا اللفظ وإنَّ أمر الثاني ليس بذي بال . فهو قول أملاه الخبثُ والعجز والجهل ولا ادري ايّ المعاني يَغْزون (٢) . أَلمعانيَ التي يعرفها العطّار والبيطار والتي هي ملقاةٌ على الطرق وهذه ان لم تلتجىءْ الى لفظٍ أَنيقٍ سريّ بقي ابتذالهَا فُضّل الأبكم على قائلها . قال صاحب كتاب الصناعتين : « وليس الشأن في ايراد المعاني لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وانما هو في جودة اللفظ وصفائه . وحسنه وبهائه . ونزاهته ونقائه . وكثرة طلاوته ومائه . مع صحة السبك والتركيب . والخلو من اود النظم والتاليف . وليس يطلب من المعنى

---

(١) من قول احد الافرنج :
Un chef d'oeuvre n'est pas fait, il nait

(٢) يقصدون

الا ان يكون صوابًا [١]»

لستُ أَدري أَهذه المعاني يقصدون أَم المعاني الاروبية العلمية ٠ وهذه ان لم تسكن بيتاً من الالفاظ مَشيداً شَيْداً مُحكماً سُلّت أَو ماتت أَو عاشت كالأجرب والمجذوم يفرّ منها مَن آنسها ويضع أَصابعَه في أُذنَيْه إِن نطقتْ ٠ قال اديب الاندلس في عقده الفريد : « وقد رأيتهم شبهوا المعنى الخفي بالروح الخفي ٠ واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر ٠ واذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل ٠ لفظ شريف جزل ٠ لم تكن العبارة واضحة ٠ ولا النظام متسقا ٠ وتضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاؤل الحسناء في الأطمار [٢] الرثة »

كلا ثم كلا ليست عناية اصحابنا بمعنى ولا لفظ ولكن هؤلاء قوم لَهُوا وأَعرضوا عن رواية البليغ الحر المحقق [٣] لقعود همّتهم وتبلّدهم

---

(١) قال بعض الائمة : « المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والحاذق . ولكن العمل على جودة الالفاظ وحسن السبك وصحة التأليف . الا ترى لو ان رجلاً اراد في المدح تشبيه رجل لما اخطأ ان يشبهه في الجود بالغيث والبحر . وفي الاقدام بالاسد . وفي المضاء بالسيف وفي العزم بالسيل وفي الحسن بالشمس . فان لم يحسن تركيب هذه المعاني في احسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر »

(٢) الطمر الثوب البالي والقول من بيت ابي تمام :

«كسيت سبائب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحسناء في الاطمار»

(٣) كلام محقق محكم النظم (لهوا) من لهي يلهى

ومالوا الى سخيف القول ليُسر تلقُّفه . وقد قال الإمام الجاحظ : « اعلم ان المعنى الحقير الفاسد واللفظ الساقط يعشش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ ثم يستفحل الفساد لان اللفظ الهجين الرديء اعلق باللسان . وآلف للسمع واشد التحاما بالقلب من اللفظ النبيه الشريف . والمعنى الرفيع الكريم ولو جالست السخفاء والحمقى شهراً فقط لكسبت من أوضار [١] كلامهم وخبال [٢] معانيهم ما لم تكسبه من اهل البيان دهراً لانّ الفساد اسرع الى الناس . واشد التحاماً بالطبائع . والانسانُ بالتعلم والتكلف و بطول الاختلاف [٣] الى العلماء يجود لفظه ويحسن ادبه وهو لا يحتاج في الجهل الى اكثر من ترك التعلم وفي فساد البيان الى اكثر من ترك التخير [٤] »

فلما فسد بيانُ القوم اذ لم يتخيّروا وعشّشت الألفاظُ الساقطة في أدمغتهم وقلوبهم وباضت وفرّخت واستفحل الفساد اذ آثروا الدّعةَ على الجِدّ . وأعوز الدواء . وتعذّرت عليهم معالجةُ الداء . غالطوا في الحقائق أنفسهم . أو عرفوا الحق ورأوه باعينهم

---

(١) اصل الوضر وسخ اللبن والدسم

(٢) فساد . ومن اقوال الاحنف : « اني لاجالس الاحمق الساعة فاتبين ذلك في عقلي »

(٣) التردد اليهم

(٤) اورد الجاحظ هذا القول في كتابه البيان والتبيين . « وهذا الكتاب (كما قال ابن الخشاب البغدادي) اشرف مصنفاته واغزرها فائدة على كثرتها وتفننها مع كبر حجم وكثرة علم وان كان كتابه في الحيوان اضخم منه واكبر حجماً ولكن هذا اغزر عند طالب البلاغة علماً »

فتعاشَوا [١] عنه · وأَحبوا ان يفسُد بيانُ كلّ انسان في الوجود لِئَلاَّ يَصِمَهم [٢] بفساد البيان ووهن الكلام واصم · « وانا اعرف الأرنب واذنيها »

وهذه هي الأَثَرِيَّة [٣] الممقوتة وإنَّ الأَثَرِيّ لتنزل بساحته القارعة

---

(١) تعاموا

(٢) يعيبهم

(٣) نسبة الى الاثرة وهي الاسم من استأثر بالشيء على غيره استبد به وخص به نفسه وضدها الايثار . وقد وصفت الاثرية (l'égoïsme) بالمقوتة لتخرج الاثرية المحمودة الطبيعية التي تظاهر في الاجتماع الانساني الايثارية (l'altruisme) فيطّرد امره بهما

فالمرء اثري وايثاري لصون نفسه وقبيله وكذلك كل حيوان اجتماعي . والاثري غير الايثاري شر الناس . والايثاري غير الاثري عند القوم ابله او مجنون. وقلما كان مثل هذا وقلما يكون

فالفضيلة الكبرى هي الاثرية والايثارية مصطحبتين . وقد دعا اليها قدماً حكماء يونان وحكيم الصين وجاءت كلمة المسيح مصدقة . ولما انشأ هيكل تلك النحلة اتخذها دعامة آدابها وقد ذكرها عبدالله بن معاوية الجعفري في قوله (رواه البحتري في حماسته):

« ارضَ للناس ما رضيت من النا س والا فقد ظلمت وجرتا »

وذكرها ابو العلاء في قوله :

« افعل بغيرك ما تهواه يفعله واسمع الناس ما تختار مسمعه »

« واكثر الناس مثل الذئب تصحبه اذا تبين منك الضعف اطمعه »

ولابي العلاء ايضاً :

« ولو اني حبيت الخلد فردا لما احببت بالخلد انفرادا »

« فلا هطلت علي ولا بارضي سحائب ليس تنتظم البلادا »

ولعربي: « ابغ للناس من الخير كما تبغي لنفسك »

« وارحم الناس جميعا انهم ابناء جنسك »

فيتمنّى ان تسقط السماء عَلَى الأرض فتصبحَ صعيداً زلَقا ولسانُ حاله يُنشد :

« إنما دنياي نفسي فاذا هلكت نفسي فلا عاش أحدْ »

وإن الأثري ليُملقُ فيودُّ أن يُمسيَ كلُّ امرئ مسكينا ·
واصحابُنا المعنويون أثريون كلُّ الأثريين · واذا فتشنا عن هؤلاء الناس الفينا جُلَّهم بل كلّهم من المكبين على غث قول المعاصرين وقلَّما تُلاقي أحداً منهم عاشر كتاباً جليلاً او صادَق ديوانَ شاعر فحل

***

وان انبرى لنا زنيمٌ في العلم فقال : إنَّ الأُمة لا تفقه القول إن اتصف بما تبغيه منا وان المعانيَ لتعمى عليها · أجبناه : ان كنت تعني بالامة جهالَهَا فهؤلاء لا يَعبأ الله بهم ولا يعبأ بهم عاقل وهؤلاء لا يبالون أَصحّ القول أَم سقيم · والجاهلُ خارجٌ عن الدائرة لا يجري عليه حكم ولا يعد في الناس « وما هذه الثُّلة[1]

---

(١) الجماعة من الناس

الا كالثَّلة (١) »

وان كنت تعني الراغبين في العلم فيها فهؤلاء ان هذبت قولك ونفخت فيه من الروح العربية ونجيتَه من الخطأ عقَلُوه . ومَن لا يعي القول ان جاء مقتنا مضبوطا ؟

كلا ان هذا الزنيم (٢) قد جهل وجار عن الحقّ واحتقد على لغة العرب فكدح في محقها « يُريدونَ ان يُطفِئُوا نُورَ الله بأفواهِهِمْ وَيأبى اللهُ إلا أنْ يُتمّ نورَه »

***

وان تصدّى لنا متصدٍّ آخر فقال : ان العلمَ ليضيق ذَرعاً إن مشّيتَهُ في هذا الأسلوب الذي تُحبّبهُ الى الناس . أَجبناه : إنّا لا نُريد ان نُجحف (٣) بك . إنّا لا نسأَلُك الا الاحتفاظ بالتركيب العربي والهربَ من رِكّة القول ثم انت على المتخيَّر فسِر في

---

(١) الجماعة من الغنم
(٢) الدعي
(٣) اجحف به كلفه ما لا يطاق

في السبيل الذي تهواه . وتنكَّبْ عمَّا لا ترضاه. وان جنحت الى التجويد فنقَّحت جملتك وأَرصنتها [١] أَبصرت معانيك واتضحت . وخلدت كتبك وتأبّدت [٢] . وهل اهلكَ الكتبَ المنقولة على عهد (محمد علي) وخلفائه الا لحنُها وسقم عبارتها . وهل أَخلد كتبَ العلم القديمة في العربية (على ان العلم الافرنجي قد نسخ جلُ ما فيها) الا صحة عبارتها وعُروبيتّها ولو سخُف كلامُها سخَف كلامِ تلك لسحب الدهر عليها اذيال الاضمحلال . وما يقي المعانيَ من الدثور الا متانةُ الفاظها . وما يخدمِها الدهورَ الا تحقيقُ كلامِها

*
* *

وان نجَم ذئب فصاح : إن لكل عصرٍ لغةً وإن لطبيعة العصر سلطاناً على القول فكيف تنادينا الى لغةٍ العصرُ يقول ان استمعها ليست هذه بلغتي فنحن نشنأ ما تنادينا اليه ولا نحب ان نقتل أَنفسنا مُنكبين على القول القديم العتيق الذي « شرب الدهر عليه واكل » وانّا لنهرب من

---

(٢) احكمتها
(٣) تابد الشيء صار ابديا

استعمال الغريب الوحشيّ ولا نَهوى لا نهوى إلا لغتَنا العصرية السهلة الواضحة التي يفهمها كل انسان حتى راعي البقر

إن نجم لنا مثلُ ذلك الذئب وعوى عواءه [١] القمناه حجراً او حجرين وعصَوناه [٢] ثم قلنا له : أَجل ايها المدجّل [٣] المُحاوت [٤] ان لكل دهر لغةً وان لطبيعة العصر سلطاناً وانّا كلّماً ابتعدنا عن زمان القرءان ابتعدنا عن جمال تلك اللغة المضرية العربية غير أَنّ لغتك العصرية هذه لغة من حديدٍ طبعٍ أَجرب [٥] فنحن نريد ان نصقل هذا الحديد لنُزيل خبثَه وَبشعهُ فترتاح اليه العيون ان آنسته ولا تضيق عن النظر اليه

ولغتُك العصرية هذه لغة معتلة فنحن ندعوك الى مداواتها ونقويتها بتلاوة القول القديم لكيلا تُسل او يدوّد لحمها ثم تموت

---

(١) في فقه اللغة للثعالبي : العواء للذئب والنباح للكلب

(٢) عصاه ضربه بالعصا

(٣) دجل الرجل اذا لبس وموّه وفعل فعل الدجال كما يقال طفل اذا فعل فعل طفيل

(٤) المحاوت المراوغ المخادع . ظل فلان يحاوتني بخدعة اي يداورني فعل الحوت في الماء

(٥) سيف اجرب اذا كثف الصدأ عليه حتى يحمر فلا ينقلع عنه الا بالمسحل

وان ارتبت في الذي تسمع وابيت الا استماع حكم افرنجي غريب فسل سل (المستشرقين) يقولوا لك : ما أَقبح لغتَك العصرية وما أَجنَّ العربَ الذين استمسكوا بسخيف الكلام وتجنبوا كريمه · وهذا من أَمارات الخِذلان « فقد قيل لمحمد بن كعب ما علامة الخذلان؟ قال ان يستقبح الرجلُ ما كان حسناً و يستحسن ما كان قبيحاً »

ثم اخبرني ان كان عندك ذرو من ذوق ومعرفة لِمَ نجدُ في كلام بعض الكتاب والشعراء المعاصرين من الطلاوة والحلاوة ما لا نجده عند سواهم · ان كنت لم تعلم عِلّةَ ذلك فتَعَلَّمْ : أَنّ هوءلاء القوم قد اخذهم آباؤهم واساتذتهم في حال صغرهم بدراسة القرءان واقوال العرب فَلَمَّا شَبُّوا ومالوا الى الكتابة وقرض الشعر جمَّل الكنز القديم من العكوف على الكتابِ الكريم وآثار العرب قولَهم وكساه هذا الرّداء من الصفاء والبهاء واعطاه هذه الحلاوَة التي تذوقُها فيه واماّ غيرهم من الأدباء فقد سلبتْ ركاكة الكتب التي صحبوها وهم صغار بهجة كلامهم واستلَّتْ منه كلّ حلاوة

« اتاني هواها قبل ان اعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا »

فاذا عرفت هذا أَيقنتَ أَنّ في الانكباب على القول القديم العتيق خيراً كثيراً بل انّ فيه كل الخير بل لا خير الا عنده

واما قولك انَّك تهربُ من استعمال الغريب الوحشيّ غير الفصيح ولا تريد ان تتقعَّر في كلامك ومقصودُك بهذا القول أَنَّك لا تهوى التوعر والتعقيد . فمن دعاك الى هذا ومن حبَّبه اليك وأَيُّ أَديب ذي ذوق قال لك : إنَّ استعمال الغريب الوحشيّ الذي انقذ الانتخاب الطبيعيّ اللغةَ منه منذ أَحقاب محمودٌ مندوب اليه ولم يقل كما قال ابن الأَثير : « احسنُ الالفاظ ما كان مأْلوفًا متداولاً لأَنهُ لم يكن مالوفًا متداولاً الا لمكان حسنه فان أَرباب الخَطابة والشعر نظروا الى الالفاظ ونقبوا عنها ثم مالوا الى الاحسن منها فاستعملوه و تركوا ما سواه [1] »

---

(١) وقال ابن الاثير في (المثل السائر) ايضاً : « قد رايت جماعة اذا قيل لاحدهم ان هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة انكر ذلك وقال كل الالفاظ حسن والواضع لم يضع الا حسنا ومن يبلغ جهله الى ان لا يفرق بين لفظة المدامة ولفظة الاسفنط وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل وبين لفظة الاسد ولفظة الفدوكس فلا ينبغي ان يخاطب بخطاب ولا يجاوب بجواب . بل يترك وشانه كما قيل اترك الجاهل بجهله

وما مثاله في هذا المقام الا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كانها كلوة وشعر قطط كانه زبيبة وبين صورةٍ رومية بيضاء مشربة بحمرةٍ ذات خد اسيل.وطرف كحيل . ومبسم كانما نظم من اقاح . وطرةٍ كانها ليل على صباح . فان كان بانسان من سقم النظر ان يسوي بين هذه الصورةٍ وهذه فلا يبعد ان يكون به من سقم الفكر ان يسوي بين هذه الالفاظ وهذه.ولا فرق بين النظر والسمع في هذا المقام فان هذا حاسة . وهذا حاسة . وقياس حاسة على حاسة مناسب

ومن له ادنى بصيرة يعلم ان للالفاظ في الاذن نغمة لذيذة كنغمة اوتار . . وان لها في الفم ايضاً حلاوة كحلاوة العسل . ومرارة كمرارة الحنظل . وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم »

ومن الذي قرّظ لك التوعر والتعقيد وحلاّهما في عينك ولم يُفرط في القدح فيهما ولم يقل كما قال بشر بن المعتمر . « اياك والتوعرَ فان التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيَك . ويَشين الفاظك . ومن اراغ معنى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما ان تصونهما عمـا يفسدهما ويهجنهما »

فقل لي بعد كل ذلك من جهر قدامك بمدح استعمال الغريب الوحشيّ ولم يندّد بالراغب في التوعروالتعقيد ولم ينعَ عليه قبح عمله

« يقولون اقوالاً ولا يعلمونها وانْ قيل هاتُوا حققّوا لم يُحققّوا»

الحقّ(١) أَنك ذئبٌ عريقٌ في الذَءابة قد حيل بينك وبين المُهور في اللغة لتفريطك في جنب العلم والأدب . ولإفراطك في اللهو واللعب . فأَردت ما اراده اخوك الأثريّ وجئتما متعاضدَين على خنْق اللغة العربية

ولا جرمَ انك لا تُميّز بين التوعر والتعقيد والتأْليف الرصين

---

(١) بنصب الحق على الظرفية وفتح همزة ان ولا يجوز الكسر والاستفهام والخبر سواء قال النابغة الجعدي :

الا ابلغ بني خلف رسولاً احقاً أن اخطلكم هجاني

ولك ان تقول احق انك ذاهب برفع حق تجعل الاخر هو الاول (سيبويه)

المضبوط الذي لا يرتع النقد حوله. ولا ريب في انك لا تفرق بين الغريب وغير الغريب وكلامُ العرب كلُّه غريب عندك . وما غيرُ الغريب في دينك الا مائتا لفظة مبتذلة وربما أَربت لغة الشبنزى[1] على هذا القدر . فاذا سمعت يوماً كلمة في علم الطب او البيطرة او الحيوان او علم الانسان او علم التشريح او علم الاجنّة او علم الانساب البشرية او علم النشوء او علم منافع الأعضاء او علم الحياة عددتها غريبة او غريبة وحشيَّة لأنك لم تألفها ولم ترها في الجريدة ولانك لا في العير ولا في النفير[2] . ولِما انَّك جهلتَ كل علم كما جهلتَ كل كلمة «ومن جهل شيئًا عاداه»

«وقد أنشد رجل قوماً شعراً فاستغربوه فقال (والله) ما هو بغريب ولكنكم في الادب غرباء . وقال رجل للطاءي في حَفْل واراد تبكيته لمّا انشد: يا ابا تمام لمَ لا تقول من الشعر ما يُفهم . فقال له وانت لم لا تَفْهَم من الشعر ما يقال . ففضحه»

وليس الغريب غيرُ الفصيح الذي سمعت البلغاء يَعيبونه ما عزب معناه عنك وعن أَشكالك فقد قال ابن رشيق في العمدة . « الـكلمة

---

(١) ارقى انواع القردة واقربها الى الناس
(٢) مثل يضرب لمن يحط امره ويصغر قدره

الوحشية هي التي لا يعلمها العالم المبرّز والأعرابي القحّ »

وقال المزهر : «قال الشيخ بهاء الدين السبكي في كتابه (عروس الافراح) يجب ان يُحمل قوله (والغرابة) على الغرابة بالنسبة للعرب العرباء لا بالنسبة الى استعمال الناس والا لكان جميع ما في كتب الغريب غيرَ فصيح قال والذي يقتضيه كلام المفتاح وغيره ان الغرابه قلة الاستعمال أي قلة استعمالها لذلك المعنى لا لغيره وقال ايضاً : ليس لكل معنى كلمتان فصيحة او غير فصيحة وربما لا يكون للمعنى الا كلمة واحدة فصيحة او غير فصيحة فيضطر الى استعمالها»

فيرى العقلاء الالبَّاء كيف عادى الحقُّ أَقاويلَ القوم وأَضاليلهم ودمغها ونكَّس اعلامَها وكيف تبلَّج حتى حكى ضياء الإلاهةِ[1] في ضُحاها

« والحق أبلجُ لا يُخيل[2] سبيلُه   والحقُّ يعرفه ذوو الألبابِ »

وكيف يُسوّل الخبث والعجز والجهل ولؤم الضريبة كيف يُسوّل كل ذلك للفتى ان ياتيَ « بالكفر بَراحا[3] . وبالشر صُراحا[4] » ولا يحسب

---

(١) الشمس
(٢) لا يشتبه لا يشكل
(٣) بيناً
(٤) مجاهرة

لكفره بالحقيقة حسابا · ولا يخشى بشَرَارته[١] عذابا · ولا يخاف عُقباها · وكيف يهوّن له احتقاب كل موبقة[٢] وافساد كل نظام · وايهان كل قوي · وتشويه كل ذي حسن · وان يؤتى الى اللغة العربية او الحسناء الرضوانية وما اللغاتُ الا من الفنون الجميلة او الآداب الرفيعة بنات الاتقان والتفنن فيُجَز شعرُها الحالك المسترسِل[٣] وتُهتم[٤] تلك الثنايا الغر[٥] · ويخدّش ذلك الخدّ الأسيل الذي أَخجلَ الورد « وتورُّدُه على ذلك شاهد » وقال اين انا من حسنه · وتُصْمَخ[٦] تلك العيونُ السواحر المظلومة ان شُبهت بالنرجس او حدق المها او مُقَل ظَبَيَات القاع · ويُحدر[٧] ذلك الخصر الذي « كأنَّ عليه من حَدَقٍ نطاقا[٨] »

---

(١) شر الرجل شرارة اتى منه الشر
(٢) احتقب الاثم جمعه والموبقة المعصية
(٣) استرسل الشعر صار سبطا وتدلى
(٤) تكسر
(٥) البيض
(٦) صمخ عينه ضربها بجمع يده
(٧) حدر جلد الرجل ورم من الضرب وحدرته انا يتعدى ولا يتعدى
(٨) من قول المتنبي :

«وخصر تثبت الابصار فيه   كأن عليه من حدق نطاقا»

والذي « لولا رحمة الله لانبتر [١]» ويُخَمَّش ذلك الوجه الجميل ويُفحَّم [٢] وتُصبح ابنةُ عَوف مضربَ المثل في القبح وهي المثلُ المضروبُ في الجمال · وتعود فتاة الجزيرة بائسة مسكينة [٣] دونها في البؤس والمسكنة والقبح فتتين (المِزرابل) .

---

(١) انبتر انقطع
(٢) فحمه سوده بالفحم
(٣) يقال للانثى مسكين ومسكينة قال :

«الناس بحر عميق والبعد منهم سفينه»
«وقدنصحتك فاحتل لنفسك المسكينه»

الجزء الثاني

وإنَّ ما يُحا كي جرمَ اولئك الشيعِ شيعِ المعاني (كما يصفون انفسهم) بل ما ينسخُه نسخاً وينسفه نَسفاً موبقةُ الذين أَحمقت[١] أُمهاتهم وعمِهت بصائرُهم وتلاحق[٢] غيُّهم واضمحلَّ ذوقهم اضمحلالا وأَفسد الضلال كل ذُريرة من ذريرات اجسامهم وإيفت[٣] أَدمغتهم حتى أَعضل[٤] كلَّ مداوٍ داؤهـا فراح الطبيب النطـاسيّ يقول : لم ترَ عيناي كاليوم[٥] ذوي سقَم أُولئك الذين أَقدموا ولم يخجلوا ولم يَوْجلوا على التمييز بين ادباء العرب وتفضيل بعضهم على بعض فجاءوا كالذي يتخبَّطه الشيطان من المس[٦] فربما فَضَّلوا بهاء الدين العاملي على البحتري وابن عربشاه على ابن المقفع وربما ساوَوا بين لغة امرئ القيس ولغة ابن نباتة الصغير وبين عبارة الحريري او الوطواط

(١) احمقت المرأة جاءت بولد احمق فهي محمق ومحمقة
(٢) تتابع
(٣) اصابتها الآفة فهي مؤوفة
(٤) اعياه
(٥) نعت ظرف محذوف التقدير لم ترَ عيناي يوماً كاليوم
(٦) الجنون لانه عندهم يعرض من مس الجن

وعبارة كامل المبرّد وأمالي أبي علي. وربما فضّلوا العماد على عبد الحميد والبَيساني على الحجّاج. وشعر بهاء الدين زُهير على المفضليّات والشاب الظريف وابن معتوق على ديوان الحماسة. وربما فضلوا كل محدَث مولّد على كل عربيّ او أعرابيّ مطبوع ولا ادري كيف يساوى المصنوع بالمطبوع وكيف يعلو المولدون الغرباء (رقاب المزاود وأبناء الطيلسان[١]) على العرب الأقحاح[٢] الصرحاء أرباب الدار وأهل اللغة الذين الفصاحة من نِقْنهم[٣] «والذين يصف أحدُهم الشيء بعقله فيكون قدوة. ويفعله فيصير حجة ويُحسّن ما شاء فيحسُن. ويقبّح ما شاء فيقبُح» والذين إنما دأْبنا أن نتطفل عليهم في كل حين. ونقف على ابوابهم مستعطين فيجودون ويُحسِبون[٣] والجودُ من شناشنهم[٤] «وقِرى الأضياف سجيتهم ونحر العشار للضيف دأبهم

---

(١) رقاب المزاود العجم لحمرتهم. تقول العرب: يا ابن الطيلسان يريدون يا عجمي
(٢) الخلص
(٣) اي هم يجودون وهم يحسبون. وفي شرح الكافية للرضي: وقد يقطع مع الفاء التي لغير السببية كما ذكرنا في قوله.

غير انا لم تأتنا بيقين　　　فنرجي ونكثر التأميلا

ومثل قوله:

وما هو الا ان اراها فجاءة　　　فابهت حتى لا اكاد اجيب

يروى بنصب ابهت ورفعه على القطع» واحسبه اعطاه حتى قال حسبي
(٤) من طبعهم

وهجيراهم (١) »

وقد قال احد الأئمة في مبحث له « أوَما ترى بشّاراً كيف سلك في رائيته

«بكّرا صاحبيّ قبل الهجيرِ إنّ ذاك النجاح في التبكيرِ»

حين استهواه التشبه بأئمة صناعة البلاغة المهتدين بفطرتهم الى تطبيق مفاصلها وهم الأعراب الخلّص من كل حارش (٢) يربوع وضب تلقاه في بلاغته يضع الهِناء (٣) موضع النَقْب (٤) دون المولدين الذين قُصارى امرهم في مضمار البلاغة أوانَ الاستباق اذا استفرغوا مجهودَهم الاقتداء باولئك »

***

وربما أَوغل فريق من هؤلاء الزّمْنى (٥) زمنى العقول في الجهالة والغيّ والفساد والقِحة والجنون والبهيمية «وكم بهائمَ في صور الأناسيّ» فقالوا « كَبُرَتْ كلمةً تخرُجُ من أفواهِهِم إن يقولون إلاّ كَذِبًا »

---

(١) عاداتهم
(٢) صائد
(٣) القطران
(٤) النقب قرحة تخرج في الجنب . وفلان يضع الهناء موضع النقب مثل يضرب لمن يضع الشيء في موضعه
(٥) زمن الرجل اصابته الزمانة وهي العاهة

« لِمَ لمْ تخرّسي يا سما ءِ ولم تسِحّي يا غمامهْ »
« لِمَ لمْ تزولي يا جبا لُ ولم تشولي[١] يا نعامهْ»

فقال هوءلاء الذين لا أدري كيف أصفهم. قالوا نعوذ بالحقيقة من قولهم قالوا: وناقل الكفر ليس بكافر : (إنَّ نهج البلاغة المعزوّ الى علي بن ابي طالب او أمثال نهج البلاغة مثلُ القرءان) أي مثل الكتاب الذي هو جوهرُ جوهرِ جوهرِ جوهرِ اللغة العربية ولبابُ لبابِ لبابِ لبابِها. وصفوةُ صفوتِها . وخلاصةُ خلاصتها. ومُصاص[٢] مصاصها . وذو البلاغة « التي تقطّعت عليها أعناق[٣] العتاق السُّبّق . وونت عنها خُطا الجياد القرَّح» والذي لم يَثبتْ من النثر العربيّ القديم إلاَّ هو والذي هو.« مناطَ الثريّا قد تعلّت نجومُها[٤] »

وما النهجُ إلاّ جمعٌ من هنا وهناك نخطبة لقطَريّ بن ابي الفُجاءة في ذم الدنيا ذكرها ابن عبد ربه في عقده وخطب لطائفة من المحدَثين

(١) شال اسرع
(٢) خالص كل شيء
(٣) العتاق من الخيل النجائب
(٤) مناط الثريا معلقها وهو من قوله :
وان بني حرب كما قد علمتم مناطَ الثريا قد تعلت نجومها
وهو من ابيات (الكتاب) ومناط الثريا منصوب على الظرفية

يؤيد ذلك الفاظُها المولدة كالأزل والأزليّة [1] ومباحثُهـا التوحيدية الـكلاميَّة التي لم تدر بها العرب إلا في القرن الثاني او الثالث

وقد ضلّ ابن أَبي الحديد اذ قال : «ان علياً كان يعرف آراء المتقدمين والمتأخرين و يعلم العلوم كلها »

وخطبٌ لجامعه عزاها الى علي تقوية لنحلته وخطبة لأعرابي ذكرها صاحب العقد وهي التي اولها « اما بعد فان الدنيا دار ممر . والآخرة دار مقر »

وخطبة لعمر بن عبد العزيز رواها ابو علي في اماليه وهي التي اولها :

---

(١) جاء في شفاء الغليل : « قال ابن الجوزي والازهري : الازلي خطأ لا اصل له في كلام العرب وانما يريدون المعنى الذي في قوله لم يزل ولم يصح ذلك في اشتقاق ولا تصريف وعدم وروده مقرر ومخالفته للقياس ظاهر لانه نسب الى لم يزل بعد حذف لم وابدلت الهمزة من الياء

وقال الزمخشري في اساسه : « علمه ازلي وله الازلي مصنوع ليس من كلام العرب وكانهم نظروا في ذلك الى لفظ لم ازل »

وجاء في الكليات : « والازلي اعم من القديم لان اعدام الحوادث ازلية . وليست بقديمة قال ابن فارس وارى كلمة يعني الازلي ليست بمشهورة واحسب انهم قالوا للقديم لم يزل ثم نسب الى هذا فلم يستقم الا بالاختصار فقالوا يزلي ثم ابدلت الياء الفاً لانها اخف فقالوا ازلي »

«ايها الناس انما انتم في هذه الدنيا غرض تنتضل [١] فيه المنايا»

واقوال للحسن البِصريّ وحذيفة رواها المبرّد والجاحظ منهـا :
«لسان العاقل من وراء قلبه ولسان الاحمق امام قلبه وكن في الفتنة كابن لبون [٢] لا ظهر فيركب ولا لبن فيحلب»

وكلام لابن المقفع في آخر (ادبه الكبـير) أوله «اني مخبرك عن صاحب كان اعظم الناس في عيني وكان رأسُ ما اعظمه عندي صغرَ الدنيا في عينه» وقد بُدّ لَ بعضُ عباراته

وخطبة لمعاوية وهي التي اولها «ايها الناس إنا اصبحنا في دهر عنود ٠ وزمن كنود» ذكرها ابن عبد ربه في العقد والجاحظ في البيان والتبيين وقفّاها هذا بكلمات تشكك ان الخطبة لمعاوية فسارع الرضيّ الى عصْبها بصاحبه

وخطبة لأعرابي جاءت في الأمالي اولها : «انمـا الدنيا دار مجـاز

---

(١) تنتضل تترامى

(٢) ابن لبون ولد الناقة اذا كان في العام الثاني والانثى ابنة لبون وجمع الذكور والاناث بنات لبون

والآخرة دار قرار[(١)]».

وكلمات لحكماء الفرس والاغريق استجادها القوم فاغتصبوها من اهلها وعَزوها الى صاحبهم وهذا دأْبُ المغرَمين في نابغتهم او عظيمهم او صاحب نحلتهم فان كلفهم به يُغطّي على بصائرهم فينسبِون اليه كل صنع باهر لم يصنعه وكل قول بليغ لم يقله وينعتونه بكل نعت غريب ويروون عنه كل أَمر عجيب وربما أَلّهوه وكأيٍّ من إِله رأَته الناس يا كل الطعام

(١) قال الحافظ الذهبي في كتابه ميزان الاعتدال : « ومن طالع كتاب نهج البلاغة جزم بانه مكذوب على امير المؤمنين علي رضي الله عنه » وقال الامام تقي الدين بن تيمية في كتابه منهاج السنة : « اكثر الخطب التي ينقلها صاحب نهج البلاغة كذب على علي وعلي رضي الله عنه اجل واعلى قدراً من ان يتكلم بذلك الكلام ولكن هؤلاء وضعوا اكاذيب وظنوا انها مدح فلا هي صدق ولا هي مدح والمعاني الصحيحة التي توجد في كلام علي رضي الله عنه موجودة في كلام غيره لكن صاحب نهج البلاغة وامثاله اخذوا كثيراً من كلام الناس فجعلوه من كلام علي ومنه ما يحكى عن علي انه تكلم به ومنه ما هو كلام حق يليق ان يتكلم به ولكن هو في نفس الامر من كلام غيره ولهذا يوجد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من الكتب كلام منقول عن غير علي وصاحب نهج البلاغة يجعله عن علي وهذه الخطب المنقولة في كتاب نهج البلاغة لو كانت كلها عن علي من كلامه لكانت موجودة قبل هذا المصنف منقولة عن علي بالاسانيد وبغيرها فاذا عرف من له خبرة بالمنقولات ان كثيراً منها بل اكثرها لا يعرف قبل هذا علم ان هذا كذب والا فليبين الناقل لها في اي كتاب ذكر ذلك ومن الذي نقله عن علي وما اسناده والا فالدعوى المجردة لا يعجز عنها احد ومن كانت له خبرة بمعرفة طريقة اهل الحديث ومعرفة الاثار المنقولة بالاسانيد وتبين صدقها من كذبها علم ان هؤلاء الذين ينقلون مثل هذا من ابعد الناس عن المنقولات والتمييز بين صدقها وكذبها »

ويمشي في الأسواق

وفي النهج خطبة طويلة اسمها (القاصعة) يجد الباحث في آخرها كلاماً يثبت هو نفسه ان عليا لم يقذف بحرف واحد[1] منها

وقد رأينا في كتب الأدب والتاريخ خطباً كثيرة لابن ابي طالب قبل ان يكون ملفّق النهج والريبُ في هذه اوفي الفاظها وفي خطب العمرين وغيرهما حق ثابت. على أنّ النهج فصيح بليغ ولكن بلاغته لا تعدو بلاغة مثله من كلام المولدين او كلام السلف المتقدم الذي حملته الينا كتبُ الأدب. ورفعته للعرب وارتاب فيه المحققون. واذا شك القوم في أحاديث النبي وهو النبي فقال شُعبة امام المحدّثين: « تسعةُ اعشار الحديث كذب» وقال الإمام الدارقطاني: « الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود» ومشى معهما في الشك علماء الجرمان فما القول في كلام علي وسواه من العرب ؟

وإنّ كتب العلم لتُنْبِئُنا بان الرواة كانوا يتقربون الى الخلفاء

(١) من مزايا الاسلام التي رفعته فوق غيره عند العلماء الاروبيين فقدان مثل الذي روي في آخر خطبة (القاصعة) راجع كتاب (l'irrèligion de la venir) لجيو (M. Guyau) الصفحة الرابعة والستين الطبعة السابعة عشرة

والسلاطين والنبهاء في الدولة برواياتهم فكانوا يضعون الأحاديث ويختلقون ما لم يكن ابتغاء خير يأملونه عند من يحملون سِلعتهم الأَدبيّة اليه او أَجلَ تبريزهم على اقرانهم برواية قول او شعر استبدوا هم بمعرفته (١)

---

(١) قال المزهر : « كان حماد الراوية ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الاشعار . وذكر يونس ان حمادا قدم البصرة على بلال بن ابي بردة فقال له ما اطرفتني شيئا فعاد اليه فانشده القصيدة التي في شعر الحطيئة مديح ابي موسى فقال ويحك يمدح الحطيئة ابا موسى لا اعلم به وانا اروي من شعر الحطيئة ولكن دعها تذهب في الناس»

وقال ابو علي القالي في اماليه :« كان ابو محرز (خلف الاحمر) اعلم الناس بالشعر واللغة واشعر الناس على مذاهب العرب حدثني ابو بكر بن دريد ان القصيدة المنسوبة الى الشنفرى التي اولها :

اقيموا بني امي صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأميلُ

هي له . وهي من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول فكان اقدر الناس على قافية. وذكر التبريزي في شرح ديوان الحماسة ان القصيدة المعزوة الى تأبط شرا واولها :

ان بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

هي لخلف ايضاً » وقال الشريشي في الشرح الكبير في شرح المقامة الاربعين : « كان للاصمعي ابن ظريف فقيل له يوماً اين ابوك فقال في بيته يكذب على الاعراب

وذكر الشريشي ايضاً ان عطاء الملك اتى بجماعة من البصرة الى قريب ابي الاصمعي فوجده ملتفاً بكساء نائماً للشمس فوكزه برجله وصاح به قم يا قريب ويلك قال القيت احداً من اهل العلم قط او من اهل اللغة او الفقهاء او المحدثين قال لا والله قال عطاء الملك لمن حضروا اشهدوا على ما سمعتم لا يقول لكم غدا الاصمعي او بعد غد انشدني والدي ففضحه»

وربما صاغ العلماء والأدباء الحديث لينصُروا مقالةً لهم او نِحلة كما فعلت جماعةُ علي في تزوير بعض خطبه وكما فعل هؤلاء في اختلاق الكلام المعزو الى فاطمة والمنشور في كتاب (المنظوم والمنثور) لاحمد بن ابي طاهر ليضعوا من مقدار صدّيق النبي وليحزّنوا به شيعتهم وانه ليستبعد العاقل ان تدنوُ نفس فاطمة (وهي ابنة محمد) « فتُقبل في لُمّة (١) من حفدتها (٢) وتدخل علَىَ ابي بكر في حَشْد (٣) من المهاجرين والانصار» ثم تُنشئ تئنّ أنين الأمة وتخنّ (٤) خنينها من اجل قرية لا تساوي دمعة واحدة من دموع أُمّ الحسن التي «دمعها في الحوادث غال» وإنّ لغة ذلك القول لتنادي على أنه مزوَّر

وما اشبه كلامَ زينبَ بنتِ علي بين يدي يزيدَ في الاختلاق

وجاء في المزهر: «لما راجعت العرب في الاسلام رواية الشعر بعد ان اشتغلت عنه بالجهاد والغزو واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلت وقائعهم واشعارهم فارادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والاشعار فقالوا على السن شعرائهم ثم كانت الرواية بعد فزادوا في الاشعار التي قيلت»

(١) رفقة
(٢) الحافد التابع وولد الولد ايضاً
(٣) جماعة
(٤) هو يخن في كلامه يخرج صوته من خياشيمه

بكلام فاطمة وقد افتعله القوم ليهدّموا مكانة الفتى العربيّ « الجَذَع القارح الذي سوبق فسَبَق . وموجد [١] فمَجد . وقورع [٢] ففاز سهْمُه » وليسعّروا نيران الحقد في قلوب المسلمين على بني اميّة . وقد ظفروا بمباغيهم فلا تجد الا المشتعلَ غضباً وحنقاً على شائد الدولة الاموية وكاتب وحي النبي ومن عمَّله عمر (وناهيك بعمر) على الشام . ولو رَجَع هؤلاء الحاقدون الى انفسهم لأمعنوا في الافتنان ببني أُميّة لِما يوقنون بأن بني امية هم الذين اقاموا هذا الصرح العظيم من المجد وهم الذين جاءوا بكل خير للعرب [٣] ولم نجدهم كما قال النهج : « ارباب سوء كالناب [٤] الضروس [٥] تعذِم [٦] بفيها . وتخبط بيدها . وتزبن [٧] برجلها . وتمنع دَرّها » وهم الذين لم نطعم طعم العز الا في سلطانهم فلما أُديل العباسيون على الأَمويين « والدنيا دول ليس عليها معوّل » لم يقم العز الاّ قليلاً ثم ذهب . ولقد صدق عبد الله بن

---

(١) ماجده عارضه في المجد فمجده اي غلبه
(٢) قارعه فقرعه اي غالبه في القرعة فغلبه واصابته القرعة دونه
(٣) لله (شوقي) شاعر العصر القائل :
« لو لا (دمشق) لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدانُ »
(٤) الناقة المسنة
(٥) الناقة السيئة الخلق تعض حالبها
(٦) تعض
(٧) تدفع

قيس الرُّقيّات في قوله :

« ما نقَموا من بني امية الا أنهم يحلُمون إنْ غضبوا »
«وأنهم سادة الملوك ولا تصلح الا عليهم العربُ »

وصدق الجاحظ اذ قال : « دولتهم (اي بنو العباس) اعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية »وصدق يزيد المهلبيّ في قوله في قصيدة يرثي بها (المتوكل على الله) العباسي الذي يسميه ابو بكر الخوارزمي في احدى رسائله « المتوكل على الشيطان لا على الرحمن » وهذا قول المهلبي

« لمّا اعتقدتم اناساً لا حلومَ لهم
ضعتم وضيّعتمُ من كان يُعتقدُ »
« ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم
حمتكم السادةُ المذكورة الحُشُدُ [١] »
« قومٌ همُ الجِذم [٢] والانسابُ تجمعهم
والمجدُ والدين والأرحامُ والبلدُ »

---

(١) جمع حاشد المستعد المعاون
(٢) الاصل

« إذا قريشٌ أرادوا شدّ ملكهم
بغير قحطان لم يبرح به أوَدُ[١] »

وانه ليحتقب حوباً[٢] كبيراً ولا يتحوّب[٣] من يقرف[٤] يزيدَ بقتل الحسين[٥] فقد انكر قتله وأكبرَه . وقد ساءه وتنقّص

---

(١) اعوجاج
(٢) الاثم الكبير
(٣) يتجنب الاثم
(٤) ويتهمه
(٥) سئل الامام الغزالي عمن صرح بلعن يزيد هل يحكم بفسقه ام هل يكون ذلك مرخصاً له فيه وهل كان مريداً قتل الحسين ام كان قصده الدفع وهل يسوغ الترحم عليه ام السكوت عنه افضل تنعم بازالة الاشتباه مثابا فاجاب حجة الاسلام : « لا يجوز لعن المسلم اصلا ومن لعن مسلما فهو الملعون . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المسلم ليس بلعان) وكيف يجوز لعن المسلم ولا يجوز لعن البهائم وقد ورد النهي عن ذلك وحرمة المسلم اعظم من حرمة الكعبة بنص النبي صلى الله عليه وسلم . ويزيد صح اسلامه وما صح قتله الحسين ولا امره به ولا رضاه عنه فلا يظن ذلك به ما دام لم يصح ذلك منه . فان اساءة الظن بالمسلم ايضاً حرام . وقد قال تعالى : « اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم » وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله حرم من المسلم دمه وماله وعرضه وان يظن به ظن السوء) ومن زعم ان يزيد امر بقتل الحسين فينبغي ان يعلم به غاية الحماقة فان من قتل من الاكابر والوزراء والسلاطين في عصره (اي في عصر الزاعم) لو اراد ان يعلم حقيقة من الذي امر بقتله ومن الذي رضي به ومن الذي كرهه لم يقدر على ذلك وان كان الذي قد قتل في جواره وزمانه وهو يشاهده فكيف لو كان في بلد بعيد وزمن قديم قد انقضى . فكيف يعلم ذلك فيما انقضى عليه قريب من اربعمائة سنة في مكان بعيد وقد تطرق التعصب في الواقعة فكثرت فيها الاحاديث من الجوانب فهذا الامر لا يعلم حقيقته اصلاً واذا لم يعرف وجب احسان الظن بكل مسلم يمكن احسان الظن به . ومع هذا فلو ثبت على مسلم انه قتل مسلماً فذهب اهل الحق انه ليس

قاتليه وإنه لمَّا أُتيَ يزيد بعلي بن الحسين والنسوة اللاءي كن معه اغرورقت[١] مدامعهُ ولعن سافكي دم الحسين ورحّم[٢] عليه «ضرب على هؤلاء الضيوف القباب . وأمال عليهم المطبخ وكساهم واخرج اليهم جوائز كثيرة والمدخلات فاطمة بنت الحسين على بنات عمها من الامويات لم تجد فيهن سفيانية الا متلدّمة[٣]» تبكي على القتيل في كربلاء

وعُدّ من الموضوع أيضاً مقالة النعمان في النضح[٤] عن احساب العرب وكلام الذين اوفدهم ابنُ ماء السماء الى سلطان فارس فانه

بكافر . والقتل ليس بكفر بل هو معصية . واذا مات القاتل فربما مات بعد التوبة . والكافر لو مات في كفره لم تجز لعنته فكيف من تاب عن قتل وبم يعرف ان قاتل الحسين مات قبل التوبة وهو الذي يقبل التوبة عن عباده فاذن لا يجوز لعن أحد ممن مات من المسلمين ومن لعنه كان فاسقاً عاصياً لله تعالى ولو جاز لعنه فسكت لم يكن عاصياً بالاجماع بل لو لم يلعن ابليس طول عمره لا يقال له يوم القيامة لمَ لم تلعن ابليس ويقال للاعن لم لعنت ومن اين عرفت انه مطرود ملعون والملعون هو البعيد من الله عز وجل وذلك غيب لا يعرف الا فيمن مات كافراً فان ذلك علم بالشرع . واما الترحم عليه فجائز بل هو مستحب بل هو داخل في قولنا في كل صلاة اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات فانه كان مؤمناً والله اعلم . كتبه الغزالي »

(١) اغرورقت عينه دمعت كأنها غرقت في دمعها
(٢) رحم عليه ترحيما وترحم والاولى الفصحى (القاموس المحيط)
(٣) تلدمت المرأة ضربت صدرها في النياحة
(٤) الدفاع

مزوّر مختلق لم يقله النعمان ولا جماعته ولن يستجرئوا[١] عَلَى مثله ولن يُجوّز العقل ان يقعد ابن الاكاسرة لاستماع ثرثرة كل مهذار نفاج[٢] ويفرغ لشهود عجرفة المتُجرف وعُنجهيته[٣]

ومن الموضوع ايضاً كلامُ وفود قريش على سيف بن ذي يزن وحديث عبد المطلب بن هاشم وحديث عبد المسيح بن نفيلة مع خاله سطيح وحديث خُنافر الحميري مع رَئيّه[٤] شُصار. فان هذه الاحاديث أَعرق قول في الاختلاق

« تخرص وأحاديث ملفقة ليست بنبع اذا عُدّت ولا غَرَبِ[٥]»

والدليل على ذلك علي عقلي فليرجع الى كتاب العقد والأَمالي من احب وليتأَمل ذلك بعين العقل ولا يسأَلنا سرد الأدلة فالموقف حرِج . واللبيبُ تكفيه اللمحة الدالّة « ومن لا يعرف الوحي[٦]

---

(١) استجرا تكلف الجرأة
(٢) النفاج المتكبر المفتخر بما ليس عنده
(٣) الكبر العظمة
(٤) الرئي ما يتراءى للانسان من الجن
(٥) تخرص عليه افترى. النبع شجر تتخذ منه القسي ومن اغصانه السهام . الغرب نوع من الشجر
(٦) الاشارة

أحمق »

نعود الى ما كنا فيه مجتزئين من البحث عن الكلام المصنوع بما اوردناه « وحسبك من القلادة ما احاط بالعنق . ومن السوار ما احاط بالمعصم » فنقول : لو سلمت سلائق الاحزاب الذين عيّناهم . وبجّلنا عليهم بجهلهم وعماهم . وحصل لهم الذوق الذي يُحال في مثل هذه المواطن عليه (١) لقدَّرُوا الكتاب قدرَه . وتجلّى لهم إعجازُه وفضلُه . واستيقنت أنفسهم أنّ كل كلام عربيّ وان حلّق في أعلى سماء البلاغة وانتهى الى « اللانهاية » عبدٌ رقيق قِن (٢) ذليل راكع ضارع (٣) خاضع خانع (٤) مستكين رعِش دهِش مرتجف واجف (٥) القلب أمام القرءان سيّد

---

(١) قال السكاكي : « كان شيخنا الحاتمي ذلك الامام الذي لن تسمح بمثله الادوار ما دار الفلك الدوار . يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام اذا راجعناه فيها على الذوق وهاهو الامام عبد القاهر في دلائل الاعجاز كم يعيد هذا »

وقال ابن ابي الحديد : « ان معرفة الفصيح والافصح . والرشيق والارشق . والحلو والاحلى والعالي والاعلى من الكلام امر لا يدرك الا بالذوق ولا يمكن الدلالة المنطقية عليه »

(٢) الخالص العبودية للواحد والجمع والمؤنث وقيل يجمع على اقنان

(٣) ضعيف

(٤) خاضع ذليل

(٥) خافق القلب

القول العربي وكالئه ، ولكن تلك القرائح لم تسلم ، وتلك السلائق لم تتهذب « والقومُ عن التحقيق رقود ، والنظر الصحيح بينهم مفقود »

« وان مزايا (القول) التي تحتاج ان تعلمهم مكانها ، وتصور لهم شانها ، امور خفية ، ومعان روحانية ، انت لا تستطيع ان تنبه السامع لها ، وتحدث له علماً بها حتى يكون مهيَّئاً لادراكها ، وتكون فيه طبيعة قابلة لها ، ويكون له ذوق وقريحة

والبلاء والداء العياء انّ هذا الاحساس قليل في الناس فلستَ تملك اذاً من امرك شيئاً حتى تظفر بمن له طبع اذا قدحته وَرى[1] ، وقلب اذا أَريتَه رأى ، فاما وصاحبُك من لا يرى ما تريه ، ولا يهتدي للذي تَهديه فانت رام معه في غير مرمى ، ومعنّ نفسك في غير جدوى ، وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤتَ الآلة التي بها يفهم ، الا انه انما يكون البلاء اذا ظن العادم لها انه أُوتيها ، وانه ممن يكمل للحكم ، ويصح منه القضاء ، فجعل يقول القول لو علم غبّه لاستحيا منه ، فاما الذي يحس بالنقص من نفسه فانت منه في راحة وهو رجل عاقل قد حماه عقلُه ان يعدوَ طورَه وان يتكلف ما ليس باهل له

واذا كانت العلوم التي لها اصول معروفة ، وقوانين مضبوطة ، اذا اخطأ فيها

---

(١) اشتعل

المخطئ ثم اعجب برأيه لم يُستطعْ ردّه عن هواه . وصرفهُ عن الرأي الذي رآه . الا بعد الجهد والا بعد ان يكون حصيفا عاقلا(١) ثبتًا اذا نُبّه انتبه . واذا قيل له ان عليك بقية من النظر وقف وأصغى . وخشي ان يكون قد غُرَّ . فاحتاط باستماع ما يقال له وانِف من ان يلجّ(٢) من غير بينة . و يستطيل(٣) بغير حجة . فكيف بان ترد الناس عن رأيهم في هذا الشأن وأصلك الذي تردهم اليه . وتعوّل في محاجتهم عليه استشهاد القرائح . وسبْرُ النفوس وفَلْيُها(٤) وما يعرض فيها من الاريحيَّة عند ما تسمع وكان ذلك الذي يفتح لك سمعهم . ويكشف الغطاء عن أعينهم . و يصرف اليك أوجههم(٥)»

***

و إنْ قال لنا قائل : إنَّ اهلَ دهرنا لا يستطيعون ان يميزوا بين القرءان وغيره . و إنّهم لا يفصلون بين كلام النبي و كلام سواه من العرب فالقولان عندهم سيَّان . وقد أَحلْتنا كيما نعرف فضيلة القرءان على الذوق وانت تدري وكلٌّ يدري أَنذلك الذوقَ قد طارت به عَنقاءُ مُغربٍ(٦)

(١) الثبت الثابت العقل
(٢) يخاصم
(٣) يتطاول
(٤) فليها روزها . امتحانها
(٥) هذا القول لعبد القاهر الجرجاني . ولهذا الامام في البيان كتابان جليلان وهما (دلائل الاعجاز واسرار البلاغة) وقد افضل على العلماء والأدباء بنشرهما في هذا العصر الامام الأستاذ السيد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار)
(٦) طائر عظيم يبعد في طيرانه (معروف الاسم لا الجسم)

منذ قرون فذر الذوق جانباً وهات برهانَك العقليّ النيّر حتى يُثبت أَنّ كلام النبي قد راق [١] على قول كل عربي ومولد بحسنه وبهائه وانه يعلو ولا يُعلى وانه منقطع النظير فيذلّ الشك ويعزّ اليقين ويُخسأ الباطل بحقٍ ظاهر

كلامٌ حكيم. وقائل كريم. وطلب عدْل أَمَمٌ [٢]. والجواب عتيد. فهاك ما تريد :

لا نخال أَنّ أَريباً يُورد الأمور ويصدرها عن العقل ويرجع فيها يوم الحيرة اليه يوقن او يظن ان كلام غير العرب من المولّدين الذين يرى مثلُ المبرّد صاحب الكامل والمقتَضب كلامَهم سخيفاً والذين لو لم يَرووا شعر العرب ونثرهم ويُخالطوهما الدهرَ الطويل ما استقام لهم قول — يُحاط [٣] بكلام العرب

وقد أَوضح الأئمة المتقدمون من أَهل العلم والذوق ذلك وأَوردنا ذَرْواً من أَقوالهم من قبل والعقلُ السليم يؤيّد هذا ويقرع العصا لغير

(١) راق عليه زاد عليه فضلا
(٢) ما سألت الا أمما اي شيئاً يسيراً
(٣) يقرب منه

ذي الحِجْر (١) الذي يرى الدخيل الزنيم (٢) كالأَصيل الصريح المُعَم المُخوَل (٣)

وكذلك لا نخال أَن ذا مسكة يُسوّي بين اقوال القبائل العربية جميعها لا يوءثر واحدةً في الفصاحة والبلاغة على أُخرى. كما أَنّا لا نظن ان أَديبًا افرنسيًا يقرُن بين لغة باريس ولغة الجانب الجنوبي او الشمالي التي إِن تَقرعْ أُذن الباريسي يُدَرْ (٤) به ويُغمَ عليه

وقد وجدنا في القديم والحديث أَنَّ الامة الكبيرة ذاتَ الشعوب الجمة والبلاد الكثيرة قد برَّزت لغةُ مدينة او ناحية فيها على جميع مدائنها ونواحيها . ولا يجحد هذا الا من جهل أَحوال الامم وآدابها . فاللغة القرشية قد استبدت برداء من الحسن هو نسيجُ وحدِه . وقد فَضَلَتْ اللغاتِ العربية قاطبةً وتميَّزت عنها بحضارتها تميزَ اللغة الباريسية عن جميع اللّهجات الافرنسية . قال ابن فارس في كتابه الصاحبي : «اجمع علماؤنا

(١) العقل
(٢) الدعي
(٣) الكريم الاعمام والاخوال ومعم مخوَل من الشواذ لان القياس من افعل مفعل بكسر العين
(٤) دير به اخذه الدوار

بكلام العرب والرواة لاشعارهم والعلماء بلغاتهم وايامهم ومحالهم ان قريشاً افصح العرب السنة . وأصفاهم لغة وكانت قريش مع فصاحتها اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم واشعارهم احسن لغاتهم واصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم[١] وسلائقهم التي طُبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب . الا ترى انك لا تجد في كلامهم عنعنة [٢] تميم . ولا كشكشة [٣] أسد . ولا كسكسة [٤] ربيعة »

« وقال معاوية يوما مَن افصح الناس فقال قائل : قوم ارتفعوا عن خلخانية [٥] الفرات . وتيامنوا عن عنعنة تميم . وتياسروا عن كشكشة بكر . ليست لهم غمغمة [٦] قضاعة ولا طُمطمانية[٧] حمير . قال مَن هم قال: قريش»

« قال المزهر : قال ابو نصر الفارابي في اول كتابه المسمى بالالفاظ : كانت قريش أجود العرب انتقاداً للافصح من الالفاظ . وأسهلها عَلَى اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأَبينها ابانة عما في النفس . وقال الفراء : كانت العرب تحضر

---

(١) طبائعهم

(٢) قلبهم الهمزة في بعض كلامهم عيناً يقولون سمعت عنّ فلانا يقول كذا يريدون أنّ

(٣) يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً

(٤) يجعلون بعد الكاف او مكانها في المذكر سيناً

(٥) اللخلخانية تعرض في لغة اعراب الشحر وعمان كقولهم ما شا الله في ما شاء الله

(٦) الغمغمة الكلام الذي لا يبين

(٧) رجل طمطماني في لسانه عجمة لا يفصح وطمطمانية حمير ما في لغتها من الكلمات المنكرة كقولهم في طاب الهواء طاب امهواء

الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية وقريش يسمعون لغات فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا افصح العرب وخلت لغاتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ »

وجاء في العقد : « قدم محمد بن عمير بن عطارد في سبعين راكباً فاستزارهم عمرو بن عُتبة فقال محمد بن عمير يا ابا سفيان : ما بال العرب تطيل كلامهم وانتم تقصرونه معاشر قريش · فقال عمرو بن عتبة : بالجندل(١) يُرمى الجندل · إنّ كلامنا كلام يقل لفظه ويكثر معناه · ويُكتفى باولاه · ويُستشفى باخراه · يتحدّر تحدر الزلال على الكبد الحرّى(٢) »

(١) الحجارة

(٢) الكلام العربي نوعان حضري وبدوي ولكل بلاغة يدركها الراسخون في علم ذلك الكلام . ولتينك البلاغتين اسلوبان رقيق وجزل

ولقد ضلّ من ظن ان جزل القول خير من رقيقه وان الرقة هي بنتُ الركة فالرقة عند (سدرة المنتهى) والركة في تخوم الارض السفلى . وهذه الاقوال العربية في الجاهلية والاسلام قد انبرقت مناحي أهلها في تينك الفضيلتين (الرقة والجزالة) فنهم من دعته سجيته الى الاولى فاتاها . ومنهم من نادته نحيزته الى الثانية فلباها . والقبيلان ساحران فيما يقولان . وان (حبيباً) القائل:

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد	وعاد قتاداً عندها كل مرقد
وانقذها من غمرة الموت انه	صدودُ فراق لا صدود تعمد
فاجرى لها الاشفاق دمعاً مورّداً	من الدم يجري فوق خد مورد
هي الشمس يغنيها تودد وجهها	الى كل من لاقت وان لم تودد
ولكنني لم أحو وفراً مجمعاً	ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تعطني الايام نوماً مسكناً	الذّ به الا بنوم مشرد

فهل اطمأننتَ يا فتى إلى أنّ اللغة القرشية هي سيدة اللغات العربية وآمنت بأن لن يقيسَ لغة المولدين بلغة العرب الأقدمين الا

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

ان هذا (الحبيب) وان اغرمنا به الا انه لن يسلينا عن (الوليد) العزيز المودود الذي يقول :

اخفي هوىً لك في الضلوع واظهر والام في كمد عليك وأُعذر
واراك خنت على النوى من لم يخن عهد الهوى وهجرت من لا يهجر
وطلبت منك مودة لم اعطها ان المعنى طالب لا يظفرُ
هل دينُ علوة يستطاع فيقتضى او ظلم علوة يستفيق فيقصرُ
اني وان جانبت بعض بطالتي وتوهم الواشون اني مقصر
ليشوقني سحرُ العيون المجتلى ويروقني ورد الخدود الاحمرُ

وابو تمام والبحتري في الشعراء المحدثين امامان كبيران وكل قد استتبعه من الكلام اسلوب فاتبعه والبلاغة والفصاحة والديباجة العربية كل ذلك قائد الشاعرين . وهادي الطائيين اللذين « اخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد » كما روى احد الائمة

وقد نعت صاحب (المثل السائر) هذين النابغين فقال : « اعلم ان الالفاظ تجري من السمع مجرى الاشخاص من البشر فالالفاظ الجزلة تتخيل في السمع كاشخاص عليها مهابة ووقار . والالفاظ الرقيقة تتخيل كاشخاص ذوي دماثة ولين اخلاق ولطافة مزاج . ولهذا ترى الفاظ ابي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم . واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد . وترى الفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين باصناف الحلي

واوجز الرضي في نعت ابي تمام وابي عبادة وابي الطيب فقال : « ابو تمام خطيب منبر . والبحتري واصف جؤذر . والمتنبي قائد عسكر »

وهؤلاء الثلاثة في راي ابن الاثير « لات الشعر وعزاه ومناته . الذين ظهرت على

الطويلُ الاذنين كيما نصير الى نكتة المسئلة · لا ريب في أنَّك اطمأننت وآمنت فاسمع اذاً

إنّ لكل امة عصراً عجيباً في العلم او الأدب اسمه في اصطلاح

ايديهم حسناته ومستحسناته »

وما اختلف الطائيان الأكبر والاصغر في الطريقة . الا لاختلاف الخليقة . فمن تشددت خليقته. استقاد للجزالة ومتنت عبارته . ومن سجحت ضريبته . رقت كلمته

وللبلد والاقليم اثر كبير في هذه الخلائق . قال الامام الجاحظ : « راينا اختلاف صور الحيوان على قدر اختلاف طبائع الاماكن . وعلى قدر ذلك شاهدنا اللغات والاخلاق والشهوات »

وقال الامام الزمخشري : « الارض مختلفة الرقاع . متفاوتة البقاع . ولذلك اختلف شجرها ونباتها . وتفاوت بنوها وبناتها »

وكأي من فتى هوي الرقة فلم تنله وصالا . وكائن من امرئ كلف بالجزالة فلم يؤنس الاّ صدودا . قال ابو العباس في (كامله) : « حدثت ان الفرزدق قدم المدينة فنزل على الأحوص فقال له الاحوص الاّ اسمعك غناء من غناء القرى فاتاه بمغن فكان مما غناه :

اتنسى اذ تودعنا سليمى ... بفرع بشامة سقي البشام
ولو وجد الحمام كما وجدنا ... بسلمانين لاكتأب الحمام

فقال الفرزدق لمن هذا فقيل لجرير ثم غناه :

اسرى لخالدة الخيال ولا ارى ... شيئاً الذ من الخيال الطارق
ان البلية من تمل حديثه ... فانقع فؤادك من حديث الوامق

فقال لمن هذا فقيل لجرير ثم غناه :

ان الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلاً بعينك ما يزال معينا

هذا الوقت (العصر الذهبي) يقول فيه القائلون · ويبدع المبدعون· ويخرج في هذا العصر نابغةٌ عبقريٌ هو خلاصة أُمّته (ونابغة كل امة خلاصتها) فيبهر كلّ قائل · ويُفحم كلّ مجادل · ويسبق كلّ

غيضنَ من عبراتهن وقلن لي　　ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فقال لمن هذا فقالوا لجرير فقال الفرزدق ما احوجه· مع عفافه الى خشونة شعري واحوجني مع . . . الى رقة شعره » وهمام بن غالب هو القائل في ملحمته. :

« لنا العزة القعساء والعدد الذي　　عليه اذا عد الحصى يتخلفُ
ومنا الذي لا ينطق الناس عنده　　ولكن هو المستأذَن المتنصفُ
تراهم قعوداً حوله وعيونهم　　مكسرة ابصارها ما تصرف
وبنيان بيت الله نحن ولاته　　وبيت بأعلى ايلياء مشرّف
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا　　وان نحن اومأنا الى الناس وقفوا
وما حل من جهل حبا حلمائنا　　ولا قائل المعروف فينا يعنف
وما قام منا قائم في ندينا　　فينطق الا بالتي هي اعرف
ولا عز الا عزنا قاهر له　　ويسألنا النصف الذليل فننصف

والناس مختلفون «و الناس اخياف » كما يقول المثل العربي فنهم وعر العريكة ومنهم دمث الخلق . ومنهم من يهلهل ومنهم الذي لا يعرج الا على الجزالة « وليست الرقة (كما قال صاحب العمدة) ان يكون الكلام رقيقاً سفسافاً ولا بارداً غثاً كما ليست الجزالة والفصاحة ان يكون حوشياً خشناً ولا اعرابياً جافياً ولكن حال بين حالين »

والامر كله عائد الى الطبائع كما ذكرت من قبل وقد قالت الافرنج : الانشاء هو الانسان

[هذا التعليق مقالة كنت قد انشأتها منذ حين ونشرتها في (مجلة المجمع العلمي العربي) الغراء]

سابق ٠ ويغبر[1] في وجه كل لاحق ٠ ويجد أبناء قومه في قوله ما لا يجدونه عند سواه ٠ ويكون هذا النابغة قائدَ قلوب الأمة والمهيمنَ عليها ٠ قال بعضُ علماء الجرمان : قد أَحسن غوتي الى كل جرماني وإنّ طائفة كبيرة من أشفّ[2] ما علمناه وأشرف ما حزناه في هذا الوجود انما جاءت الينا من غوتي

وقال كارليل : « شكسبير الملك الاكبر الحاكم على جميع الشعوب الانكليزية في أنحاء الدنيا كافة ٠ ولن يبرح الرجل الانكليزي يقول لصاحبه وجاره ولن تريم[3] المرأة الانكليزية تقول لتربها وجارتها في الهند وكندا وجامايكا واسترالية : شكسبير هذا رجلنا ٠ نحن الألى نجلناه ٠ والينا يُنسب ٠ وبفؤاده نشعر ٠ وبعقله نفكر »

ولكل امة نابغة ٠ ولكل قوم عصرٌ ذهبيّ ٠ ونابغة الامة العربية (بل أُم هذه الكرة الارضية قاطبة) هو محمد[4] بن عبد الله النبي

---

(١) غبرَ في وجهه سبقه
(٢) افضل
(٣) لا يريم لا يزال
(٤) كان في هذا المبحث فرض وتقدير وقد سار كثير من ائمة السلف الصالح في هذا الطريق ٠ (راجع خاتمة مفتاح العلوم في ارشاد الضلال للامام السكاكي)

العربيّ وقد جاء في أكرم عصورها في إبّان[١] كمال اللغة العربية فتقدَّم كلّ بليغ . وأخرس لهْجة كل منطيق[٢] . ولجَّج[٣] وكل على الشطّ

وقد كان مُدلاً[٤] بنفسه واثقاً بنبوغه وبراعته ولذلك قال : « انا افصح من نطق بالضاد[٥] » وقال كتابه : « فأتوا بسورة من مثله » « فلم يتصدّ للاتيان بما يوازيه او يدانيه واحد من فصحائهم . ولم ينهض لمقدار اقصر سورة ناهض من بلغائهم . وهم الذين لا يُصطلى بنارهم في استحكام المعرفة بالامور . وحسن الاحاطة بها . وهم امراء الكلام وزعماء الحِوار[٦] . وهم الحراص على التساجل[٧] في اقتضاب الخطب . والمتهالكون على الافتنان بالقصيد

(١) ابان الشيء حينه واوله

(٢) فصيح

(٣) خاض اللجة وهي معظم الماء

(٤) المدل بنفسه الواثق بها وبعدته والأته

(٥) قال الأمام الجاحظ في بعض رسائله : « كان النبي (صلى الله عليه وسلم) افصح العرب لسانا . واحسنهم بيانا . واسهلهم مخارج للكلام . وأكثرهم فوائد من المعاني لأنه كان من جماهير العرب مولده في بني هاشم واخواله من بني زهرة . ورضاعه في بني سعد ابن بكر ومنشؤه في قريش ومتزوجه في بني اسد بن عبد العزى ومهاجرته الى بني عمر وهم الأوس والخزرج من الانصار »

(٦) مراجعة الكلام

(٧) التباري

والرجز[١]»

« وقد اعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظم (القرءان) وخصائص صادفوها في سياق لفظه • وبدائع راعتهم من مبادي آية ومقاطعها • ومجاري الفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل • ومساق كل خبر • وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام • وتذكير وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان • وصفة وتبيان • وبهرهم انهم تأملوه سورة سورة وعُشراً عشرا • وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها • ولفظة ينكر شانها • او يُرى ان غيرها اصلح هناك او اشبه • او احرى واخلق • بل وجدوا اتساقاً بهر العقول واعجز الجمهور • ونظاما والتئاما • واتقاناً واحكاما • لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع حتى خرست الالسن عن ان تدعي وتقول • وخلدت[٢] القروم[٣] فلم تملك ان تصول[٤]»

وإنّ الذي أضافَ الى جمال قول النبي وبهائه جمالاً وبهاء • وضم الى حلاوته وعذوبته عذوبةً وحلاوة فامتلك القلوب واقتاد النفوسَ اليه اقتياداً عجباً أنّ النبي كان ذا غرائز عجيبة كريمة غادرت في كلامه

---

(١) الزمخشري في كشافه
(٢) اقامت في مكانها
(٣) الفحول فحول الكلام
(٤) عبد القاهر الجرجاني

من الكهربيّة ما غادرت . وإنّ الفتى ليكاد يلمس بلاغة (الكتاب) مع كهربيّته بيده « إن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد » وأنّ قول النبي « وقولهُ ذوب الروح » قد خرج من قلبٍ محترق مُلتاع[١] قد أشجى نفسَ صاحبه وأكأبها أنّه رأى الامَ يومَ جاءَ دمشق في جناتِ الدنيا ورَوْضاتها يُحبرون[٢] « طعامُهم الدّجاج المسمن بكسكر[٣] والرجراج[٤] بالسمن والسكر » ولباسُهم فيها حرير . والعيش رَخْرَح[٥] رَغد .

---

(١) محترق من الهم

(٢) ينعمون ويسرون

(٣) بلد بسواد العراق ينسب اليها الدجاج الكسكري

(٤) الرجراج الفالوذ الذي يترجرج وفي كلام الخوارزمي نزلنا بفلان فجاءنا بشواء رشراش وفالوذ رجراج

(٥) رويت هذه العبارات ذات مرة في احد مجالس الكاتب الخطيب النابغة الاستاذ محمد توفيق بك دياب فقال : « الالفاظ العربية تحمل معانيها معها »

واني لما سعدت في السنة الماضية بزيارة القاهرة (عاصمة المملكة المصرية وعاصمة العرب اللغوية) سمعت هذا الخطيب العالم يخطب فتذكرت قول ابي اسحق الصابي :

« لك في المجالس منطق يشفي الجوى ويسوغ في اذن الاديب سلافه »
« فكأن لفظك لؤلؤ متنخل وكأنما آذاننا اصدافه »

وهيهات ان يوضح هذا القول او غيره فضيلة هذا النابغة في الخطابة فالحالة فوق نعت الناعت وبيان البليغ . ولا يقدر على ان ينعت جيداً براعته في خطابته الا بلاغته

وقومه العرب في سعير الجزيرة يحترقون . طعامهم الجَشِب[١] . ولباسهم الخشن . والعيشُ نكِد . وكلٌ وراء ناقته او جمله هائم ينشد :

« يشكو اليَّ جملي طول السُرى صبرٌ جميل فكلانا مبتلى[٢] »

« اذا ما قمت ارحلها بليل تأوَّه آهة الرجل الحزينِ »
« تقول اذا درأتُ لهاوضيني[٣] اهذا دينه[٤] أبداً وديني »
« أكلَّ الدهر حلٌ وارتحال أما يبقي عليَّ وما يقيني »

وهذه الخلائق العظيمة وهذه الفضائل الكبيرة لم يحزها من العرب حائز لا عمر ولا ابو بكر ولا رجلٌ من القريتين[٥] عظيم فيقدر قولهم أَن يكون عبداً لقول النبي بَلْهَ ان يساويه في المرتبة

فكلامُ النبي أيّها المفتون ببلاغة النبي قد خرج من ذلك القلب الجريح وقد قال عامر بن عبد القيس: « الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في

(١) الغليظ الخشن
(٢) من ابيات (الكتاب) وقد رفع صبر جيل على اضمار مبتدا او اضمار خبر
(٣) الوضين بطان عريض منسوج من شعر او سيور
(٤) شأنه . عادته
(٥) القريتان مكة والطائف ورجلا القريتين الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي وكان الوليد يقول : لو كان حقاً ما يقول محمد لنزل هذا القرءان علي او على ابي مسعود الثقفي

القلب واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان » . « وقال بعضهم قلت لاعرابي ما بالُ المراثي أشرفَ اشعاركم قال : لأنّا نقولها وقلوبنا محترقة »

وقال كارليل : « القرءان خارج من فؤاد محمد فاخلق به ان يصل الى فؤاد سامعيه وقارئيه »

وقال كارليل ايضاً : « صدور الكلام من اعماق الروح هو سر خلوده الوحيد »

وكلام النبي هو ابن تلك الخلائق التي عرفتَها

وكلام النبي هو كلام النابغة الذي يجيءُ في عصر الأمة الذهبي وفي القبيل الذي بَذّتْ لغتهُ لغاتِ شعوبِهِ كافة

فالنبي أفصح عربي والقرءان خير كتاب

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرءان لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »



اقوال

صحف القاهرة[1]

في الخطبة

قول السياسة

قالت جريدة (السياسة) الغراء

في منتصف الساعة السادسة من مساء أمس احتشد بدار (جمعية

---

(١) انما نقلت اقوال هذه الصحف (وهي اكبر الصحف العربية) ليستيقن العالم الشاك . ويعرف الجاهل الحيران اني دعوت الى حق . وان جديد القوم خلق

فليس كل جديد ينجم في الدنيا بجيد . وما كل قديم بضاره قدمه . ولا يرضى الحكيم عن الجديد الا اذا جاد . والجيد لا يرفض بل يستجاد ويحرص عليه . وما نبذنا الجديد (وان قال الشاعر القديم اعني الحطيئة : لكل جديد لذة) لجدته . لكن لفقدان جودته . فاغد علينا بالجديد الجيد نتقبله . ولن تجد هذا الا في معادن القديم الكريم فابحث عنه هناك ابحث هناك وان عليه

وقد قال لي الكاتب العالم النابغة الدكتور طه حسين يوم علم مقالتي : « انا متفقان » اجل انا متفقان. وما اتفقنا على ضلال . وما انتحلنا في اللغة الا دين الجمال والكمال . ومن يستحب القبح والنقص على هذين . ومن يتبدل الحجارة والتراب بالعسجد واللجين

وقول الكاتب النقاد النابغة الاستاذ عباس محمود العقاد في هذا الشأن كقول اخيه وقد سمعته يخطئ الجاهلين من المتلقبين بالمجددين

الرابطة الشرقية) جمّ غفير من أُدباء الأخوات الثلاث : سورية وفلسطين ومصر لسماع المحاضرة الغرّاء التي تكرم حضرة الاستاذ اسعاف نشاشيبي بك أَديب فلسطين الأكبر بالقائها خلال إِقامته المباركة في هذه الديار . وكان بين هذا الجمع الحاشد عدد وافر من أَصحاب الفضيلة العلماء بينهم حضرة صاحب السماحة رئيس « الرابطة » السيد عبد الحميد البكري ووكيل الجمعية سعادة شفيق باشا وخيرة من أَهل الفضل والعلم لا نحاول ذكر أَسمائهم لأنهم كثير وكلهم سواء في العلم والمقام

صعدَ الأُستاذ منبراً وُضِع له في صدر الحديقة الجميلة التي يزدانُ بأشجارها فِناء الدار . ثمَّ انبثق الاستاذ بنهرٍ غزيرٍ من القول الحكيم تغلي أَمواهه بشعلةٍ أَخَّاذةٍ من الحماسة للعرب والعِزّة الصادقة الغيور على هذا اللسان القويم أَن تَعبث به العجمة وتُبليه أَيدي اللاعبين

ولقد كان يُخَيَّلُ اليك حين تسمعُ هذا الصوتَ المليء وهذه النَبَراتِ الملتهبة وهذه اللهجةَ الجزلة الفصحى أَنَّكَ تستمع الى رجل من أَساطين العربيَّة في عهدها الأوّل قبلَ أَن تعتورَها عوارضُ الضعف والسقم .

نعم لقد أَعادنا الاستاذُ الى عهد الجاهليَّة أَو صدر الأسلام حين كان المعنى الضخم يبرزُ في اللَّفظ المتين الضخم ، وحين كان الكلامُ يصدرُ عن القلب فيقع في أَعماق القلوب في مستقرٍّ ثابتٍ مكين . حين لم تكن صناعةٌ مجلوبة ولا حِليةٌ مغصوبة ولا ركاكةٌ ولا عِوج

ولقد كان الاستاذ شديدَ التوكيد لكل معنىً من معانيه . ولكل عبارةٍ ساحرة من عباراته . حتى لكأنَّ روحه أَشعةٌ قويَّة يُلقيها على السامعين حارَّة فعَّالة فتُوقظ من حماستهم مثلَ حماسته ومن غَيرتهم مثلَ غيرته . ولقد مضى الاستاذ في كلامه ساعة ونصف ساعة (او ما يقرب من ذلك) لم يعثر له لسان ولم ينضب له بيان ولم تعُوزه قوةُ اليقين والإِقناع في جملةٍ واحدة من جمله الرصينة التي كانت تقع على الأسماع والنفوس موقعَ الشهب ولكنَّها شُهبٌ مطهِّرة لا شهبٌ محرقة

وتُخلِّصُ محاضرةُ الاستاذ في أَنَّ مجدَ المشرق متصلٌ بمجد لغتنا العربية . وأَنَّ مجد العربيَّة لن يثبتَ لصدَمات الزمان إلاَّ إذا حرَص أَبناءُ الشرق على أَن يتخذوا لغةَ الأوائل من أَهل البلاغة السليمة

والفصاحة الصافية إماماً يهتدون به فيما يُنشئون من نظم أو نثر في أبواب الأدب أو العلوم أو الفنون وحمل الاستاذ حملةً شعواء على أُولئك الذين يشترون بفصاحة لغتهم الأصيلة ثمناً قليلاً أو يصدِفون عن العكوف عليها يرِدُون من مناهلها ويرتعون في مراتعها وتمتلئ رؤوسهم بِفُصُحها وأَشتات بلاغاتها مما يصقُل اللسان ويفتق فيه موهبة البيان

ولقد كانت الأَلفاظ الشائقة التي اختارها الاستاذ لمحاضرته النفيسة ، والتراكيب القويَّة البنيان ، الأنيقة الرّصْف في غير ما كُلفةٍ ولا صنعة ،— دليلاً ناطقاً على أنَّ الاحاطة بلسان العرب والأخذَ بأَساليبهم المصفَّاة من شوائب اللكنة والحَصَرِ والضربَ في كلّ غرضٍ من الأَغراض البعيدة بسهم لا ينحرف عن المعنى المقصود قيد شعرة ، كل أُولئك لا تَتَوافرُ لأحد إلاّ بعد الكدح الطويل والعمل الدائب

وهل من أَدباء الغرب من لا يُحيط بأَسرار لغته أَوسعَ احاطة ؟

وهل منهم الا من يُعاني في ذلك اضعافَ ما يعانيه أَبناء المشرق في تبيّن لطائفِ العربية واكتناه دقائقها التي لا تعد ولا تحصى ؟

وإنّا لنعلمُ ونحن نكتب هذه السطورَ الغثة[1] ، بالقياس الى الجوهر الخالص الذي نثره الاستاذ على مسامعنا أمس ، أنّا نكاد نشوّه محاضرته اذ نحاول الإتيانَ بشيء من أوصافها الممتعة

هذا وقد كانت جمعية الرابطة الشرقية قد عوّلت على طبع محاضرة الاستاذ على نفقتها وتوزيعها بالمجّان عَلَى كل أديب يَغار على ذلك اللسان أَن يرتضخ عجمة فيذهب جمالهُ ويزول مجدُه ومجدُ المشرق معه — ولكن صاحب مطبعة المعارف حضرة نجيب افندي متري تقدّم الى « الجمعية » راجياً أَن توليَه هذه الخدمةَ النافعة وأَن تدعه ينتهز فرصةً يُسدي فيها الى اللغة العربية والأَدب يداً . وبعد لأْيٍ قبلت الجمعية إسنادَ هذا

(١) انما حمل جريدة (السياسة) الكريمة على هذا التجاوز في التواضع فرط ابتهاجها بدعوتي الى اللغة العربية القرءانية

واذا كانت تلك السطور غثة (كما تقول) فما هي طلاوة الكلام وما هي رصانته وما هو الابداع ؟

واذا لم يجد الناس البلاغة التامة والفصاحة العربية والبيان الساحر والكتابة التفصيلية النفسية في هذه المقالة فقل لي اين يجدون كل ذلك ؟

وهل يعني ابو عبادة البحتري الا اياها بقوله :

« في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظامُ فريد »
« وبديع كانه الزهر الباسم في رونق الربيع الجديد »
« مشرق في جوانب السمع ما يخلقه عوده على المستعيد »

العمـــل الى حضرته[1] . وعما قليل تُزَفّ المحاضرةُ الى أَبناء العربيّة من غير عوض سوى إِقبال جمهور الأُدباء والمتأَدبين على قراءتهـا والانتفاع منها بأَمرين — الأسلوب الممتنع الرّصين والغَيرة الصَّادقة على لغة العرب

خطبة

الاستاذ خليل بك مطران

أَفضلت جريدة (كوكب الشرق) الغراء على (هذه الخطبة) فاطنبت في التنويه بها ثم اوردت الخطبة البليغة التي خطبها الشاعر الكاتب الاديب النابغة الاستاذ خليل بك مطران في دار الرابطة الشرقية يوم قرأْت خطبتي وهي :

أَيها السادة

في السنة الماضية والشهرُ ثاني أَشهر الربيع شهدتُ اسعاف بك النشاشيبي في الجامعة الامريكيّة ببيروت يخطب رجالَ الأَدب والعرفان

---

(١) ثم سألت نجيب افندي متري ان ينزل لي عن حقه في طبعها فكان له فضلان

في الشّام[١] ويُطربهم كلّ الطرب بذلك السيلِ المتدفّق من أَقواله الطليّة الشائقة في لغة العرب

وهأَنذا في هذه السنة والشهرُ ثاني أَشهر الربيع أَشهد اسعاف بك النشاشيبي يخطب في القاهرة جِلَّةَ العلماء الأَعلام وصَفْوَةَ الأُدباء الكرام ويُطربهم كلَّ الطرب بذلك السيل المتدفق من أَقواله الطليّة الشائقة في لغة العرب

إِنّ اسعاف بك النشاشيبي لَغنيٌّ باسمه عن التعريف غيرَ انكم وقد نظرتموه وسمعتموه الآنَ فقد تبيَّنتمْ تبيناً أَتمّ — مَنْ هو ذلك الرجل الذي وقف حياتَه الثمينة على تأْييد رأْي تملّك حواسه وأَصبح محوراً لأَمله ومداداً لعمله. ذلك الرأْي هو أَنَّ هممَ القادرين في الأُمم العربيَّة المختلفة جديرةٌ بالانصراف جميعاً الى إِنهاضِ لغةِ الضّاد وتقويتِها وإِلباسِها أَحزمةَ النجاة مما يُحيط بها من الأَمواج المغرقة واعطائِها وسائل الوفاء بالحاجات العصريّة لِتصلحَ للبقاء وتسليحها بما تَدرأُ به عنها هجماتِ المتنوّعين

---

(١) يشير قول الاستاذ الى خطبة (قلب عربي وعقل اوربي) التي خطبتها في الجامعة الاميركيّة في بيروت في ١٧ مايس سنة ١٩٢٤ وكانت الجامعة قد دعت حضرته والفاضل الريحاني واياي الى الخطابة في دارها

من الأَعداء ، مخافةَ أَن يُدركها الانقراض . أو أَن يجعلها الجمودُ في حالةِ ما ينظُر اليه الرُوّاد الآسفون من بدائع الأَنقاض

ذلك هو رأيُ الأَديب الحكيم العربيّ الصميم اسعاف بك النشاشيبي الذي حظيت بمعرفته منذ عام واحد فأَلفيتهُ جديراً بأَن يُجلّه ويبجّله كلّ من يُشاطره كما أُشاطره العقيدةَ القائمة على أَنّ صيانة لغة الضّاد وتعزيزَها وترقيتَها وتوفيرَ اسباب انتشارها وسهولة استعمالها وعَوْد الإِقبال عليها في شعوبها غرضٌ حقيق بالاّ يؤَخرَ عن سائر أَغراضنا القوميَّة العُليا : لأَنَّه إِذا كان ضعفُ النفوس والتخاذلُ وتقديمُ المصلحة الذاتيَّة على المصلحة العامَّة إِلى آخر السلسلة الطويلة من عيوبنا المعشرية التي نعرفها ، إِذا كان كلٌّ أُولئك قد أَفضى بأَقطارنا العربيَّة الى ما أَصابها من الشتات . وحلَّ بها من متعدد النكبات . فلن يُعينها معوانٌ أَنفع في بَعْث الميت من الهمم ، وجمع المتفرق من الكلم ، يومَ تلتمسُ الحياة الاستقلاليّة ، وتَرِدُ السعادة الأَهلية في مواردها ، من أَنْ تكونَ اللّغة سليمةً نامية ذائعةً في أَقاليمها ذيوعاً يوثّقُ بينها عُرى التعارف . ويُبرم أَواخيَ التآلف ريثما يُعاد ما انقضى من عهد . ويُجدَّدُ ما دَرس من مجْد

فيأيها الماجد ابن الأمجاد. ويا خيرَ مُدافع من طريق اللغة عن سلامة البلاد. لقد سرّني موقفاك أمسِ واليومَ بحاضرتي الشّام ومصر أيما سرور فقد أراني أثرُ كلامك في نفوس الجماهير المحتشدة أنّ وراءَ التقسيم والتشتيت في أقطارنا وَحدةً أدبيّةً نجمُها القطبيّ الثابت الذي تلتقي عنده عيونُ الآمال هو انبعاث اللغة العربيّة

قول المقطم

قالت جريدة المقطم الغراء:

كان أمس (الاحد) موعد المحاضرة القيّمة التي دعت جمعية الرابطة الشرقية أكابرَ فضلاء القطر وعلمائه وادبائه لسماعها فلبّوا دعوتها وأقبلوا من كل جانب الى ناديها فكنتَ ترى أُدباء الأقطار العربية الكبرى (مصر وفلسطين وسورية والعراق والحجاز والمغرب الاقصى) وقد جاس بعضُهم الى جنب بعض تجمع بينهم وَحدة الشعور وتربطهم رابطةُ لغةِ العرب الوُثقى

ووقف الاستاذ منصور فهمي يشرح اغراض الجمعية فقال: إنّ

من أَهم عملها توثيق الروابط بين الشرقيين وان شعورَهم بالألم كفيل بربط قلوبهم، وشعورهم بالأمل يوحّد نزعاتهم . وإِنه مما يزيد في توثيق الروابط تعارفُ الأدباء من تلك الامم وإِن اقرب تعارف يكون محوره اللغة التي غذّت نفوسهم بخيرها . ثم قدّم خطيب الحفلة الاستاذ الكبير اسعاف بك النشاشيبي فاستقبله الحاضرون بالتصفيق حينما صعد المنبر

استهل الاستاذ النشاشيبي المحاضرة بشكر الجمعية ثم بشكر مصر والثناء على شعرائها وأُدبائها وفضلائها ثم بدأَ محاضرته في اللغة العربية وقال انها سيدة اللغات وأَفاض في ذكر المتقدمين من الشعراء وتأْثير القرءان الكريم في اللغة العربية وبكى عهد الذين كانوا إِذا سمعوا آياتهِ تُتلى بكوا ولعظمته سجدوا

وقد أَفاض الاستاذ ما شاء علمه الجم وأَدبه الغزير في الكلام عن اللغة وأَدبها وتأْثيرها في حياة الأُمم واستشهد بطائفة مختارة من أَقوال حكماء العرب والفرنجة في العلم وما يُحس المشتغلون به من لذة لا يُحس بها سواهم من الذين فترت هممهم وبلُدت طباعهم وقَصُرت خُطاهم عن اللحاق بمن سبقهم من الأُلى وقفوا نفوسهم على خدمة العلم وتعهد غراسه .

واستطرد الى الكلام عن دعاة التجدّد في اللغة العربية الذين يقولون إنّ العبرة بالمعنى لا اللفظ فوصفهم بانهم من المعطلين وندد بهم وقال انهم يريدون ان يطفئوا نور اللغة وأَثنى على القديم وجمال اسلوبه وقال سائلوا المستشرقين فانهم يدركون جماله واستشهد بموت الكتب التي نقلت الى العربية في عهد محمد علي الكبير على ضَرورة تجديد الصناعة اللفظية وقال إنّ الكتب ذات اللفظ الصحيح هي التي تخلد مهما كرت العصور وتعاقبت الايام وان المعنى الشريف يحتاج الى لفظ كريم يأْوي اليه

ولا نحاول في هذه السطور القليلة الاحاطة بتلك المحاضرة النفيسة التي تدفق صاحبها في القائها تدفقاً استمر اكثر من ساعة نخلب الالباب بمتانة اسلوبه وجزالة تركيبه وبديع بيانه وذكّر الناس بعصر فحول الأَدب المتقدمين وائمة البيان والمنشئين · وختمها بالدعاء لمصر · ثم خطب شاعر القطرين الاستاذ خليل بك مطران فاثنى ثناء مستطاباً على الأُستاذ المحاضر ووصف جهوده لاحياء اللغة العربية وانهاضها وقال ان اللغة يجب ان تكون القطب الذي تتجه اليه انظار جميع ابناء اللغة العربية في جميع الاقطار وان اقيمت الحواجز والفواصل بينها · اذ هي العروة الوثقى التي لانجاة لهم الا بالتمسك بها

قول الاهرام

قالت جريدة الاهرام الغراء :

جمعت حديقة دار الرابطة الشرقية اصيل أَمس الصفوة المختارة من اهل الوجاهة والفضل في القاهرة لسماع محاضرة الأديب الكبير اسعاف بك النشاشيبي في اللغة العربية وافضل المذاهب في بيانها . وما ازفت الساعة السادسة حتى وقف الاستاذ المفضال الدكتور منصور فهمي فقدم الخطيب للحاضرين واشار الى الموضوع الذي اختاره لخطبته بأعتبار ان العربية هي عروة الاتصال الوثقى في الشرق العربي خاصة وفي العالم الشرقي عامة

ثم وقف الخطيب فعرض الأَدوار التي مرت على اللغة العربية منذ البدء الى ان بلغت اوج كمالها فاختارها الله لكتابه الذي أَعجز ببلاغته الاولين والآخرين وكان خيرَ كتاب أُنزل للناس . ثم انتقل الى ذكر عصر العربية الذهبي في الصدر الأول ، وما كان لفحول البلغاء واساطين العلماء من الفضل الجسيم بتداركها ايام اختلط العرب بالعجم وكانت العربية مهددة بالدخل والوهن . فوقف حماتُها حياتَهم على

تدوين دواوينها وحفظ مادتها في معاجمها وصون ما فيها من حكمة بالغة ومثل سائر وشعر فحل وقول جزل

وقد نهج الاستاذ النشاشيبي المنهج الجاحظيّ في حسن التنقل بين مختلف الأفكار ومتنوّع الابحاث ، موئلفاً بينها بأبدع الروابط وأجمل المناسبات ، وكانت الخطبة مملوءة بخير الشواهد من أقوال أرقى طبقات العلماء والفصحاء من العرب المتقدمين والافرنج المتأخرين تتخللها لطائف اخبارهم

ومما استطرد اليه بحث بديع في سعادة العلماء وشقائهم ، وان لذتهم بالعناء واستئناسهم بالجهد والفاقة والنصب في سبيل تدوين الحكمة وتمحيص الحقائق هو الذي أوصل الحضارة الى ما هي عليه اليوم من التقدم العجيب . وقد ضرب الخطيب بذلك مثلاً للذين يعتذرون عن الضعف والجهل والعجز بما يعترض التبريز في العلم والحصول على المرتبة السامية في البيان من عقبات لا تُطوى الا بالتعب فقال لهم وهل للعالم لذة الا بهذا التعب الذي منه تفرون . وهنا تدفق الخطيب كالسيل مبيناً ان مرتبة البيان العليا في هذه اللغة الشريفة لا تُنال الا باطالة النظر فيما لفحولها الاقدمين من قول سري وبيان شريف وبلاغة سامية

حتى تنطبع في اللسان ملكة هذا النوع من القول · ونفى ما يزعمهُ ضعفاء البيان من ان المذهب القديم الجزل في الانشاء العربي يرمي الى تخير حوشي الكلام وغريبه فقال ان ذلك ليس من المذهب القديم في شيء وان كانت اللفظة الغريبة قد تدعو الحاجة الى استعمالها عند الاحتياج الى التعبير عما تدل عليه من معنى ، لانه ليس للمعنى الواحد لفظان غريب ومأنوس ، بل المعنى الواحد له لفظ واحد لا يدل عليه بعينه الا هو

وقال فيما يزعمهُ الزاعمون من صعوبة اللغة العربية ان اللغة الجرمانية أَعصى منها على طالبها · ولم يسهلها على الناس الا الطرق العلمية اللطيفة التي وضعت لتعليمها

وبالجملة فان الأغراض التي رمى اليها الخطيب كانت كثيرة المناحي ، متعددة المقاصد ، يتخللها من بديع الاستشهاد ما لذ السامعين وودوا لو طالت الخطبة اكثر ، وطالما قاطعوا جملها بالتصفيق

***

ولما انتهى من خطبته حيّا مصر ، وقال انها معقل العربية المنيع

ثم ارتقى المنبر شاعر القطرين خليل بك مطران فذكر مكانة الاستاذ النشاشيبي الرفيعة في الأدب العربيّ ، وانهُ وقف حياته على خدمة قوميتنا من طريق اللغة ، لأنهُ يرى ان منطقة النجاة للامة في البحر اللُّجيّ الواقعة فيه انما هو ان تبلغ بلغتها مرتبة الكمال باحياء بلاغتها التي كانت عليها في عصورها الذهبية واعدادها لأَن تكون لسان الحضارة الحديثة

قول البلاغ

قالت جريدة البلاغ الغراء :

أَمَّ عدد جمّ من الفضلاء أَمس في منتصف الساعة السادسة ساحة جمعية الرابطة الشرقية لسماع محاضرة ضيف مصر وأَديب فلسطين الكبير اسعاف بك النشاشيبي التي كان موضوعها اللغة العربية . وكنت من بين الذين تشرفوا بسماع درره فأَفاض المحاضر ببلاغةٍ نادرة وقدرة مدهشة في وصف ما تُلاقي هذه اللغةُ المسكينة من هضم الحقوق والترك

الشائن . وحَثَّ بما ضرب به من الأمثال على الأَخذ بِضبعيها مُدحضاً كلّ ما يحتجُّ به أَهل الكسَل والخمول . وذكر أَنّ الاقوام لا تحيا الا بحياة لغاتها ولا تقوم لعصبية من العصبيات قائمة إِلا اذا ارتكزت على لسانها وناهيك بلسانا العربيّ القويم الذي نزل به القرءان الكريم معجز البشر كافةً في فصاحته وبلاغته وهو لسان فحول الشعراء ثم من تبعهم في العصور الأَخيرة وهو بالتحقيق كما كتب علماء المغرب خيرُ ما أُخرِج للنّاس من اللغات

ولقد دلّ خطابُ الاستاذ المحاضر على هيام شديد بهذه اللغة ملأَ كلامهُ حياةً ناطقة فهو إِن تكلم عنها فانّما يُناجي حبيبته النائية ويطلب بسعادتها سعادته ويستصرخ القوم كي يمدّوا لها يد المساعدة حتى تعودَ مرةً ثانية الى مغانيها . فما كان كلامهُ بالامس إِلا مخاطبةً وجدانيةً أَو وحي عاشق أَضناه البعاد فلمس سامعوه روحهَ في كل كلمة نطق بها

ونحن نشكر للمحاضر أَنّه أَثار هِمَمَنا وأَيقظ مَشاعرنا بما أَسمعنا من صَبابته وإِنّنا لعلى ثقة من انهُ وقد أَبرز لنا جمال هذه الفاتنة سيحملنا

على ان ننهج نهجه ونتبع خطاه والله الموفق في المسعى والمنيلُ اصدق الآمال [1]

م٠ح٠ك

قول

اللواء المصري والاخبار

قالت جريدة اللواء المصري والأخبار الغراء :

من أَطرب ما سمعتُ محاضرةُ الأحد الماضي ، سمعتُها في الذي هو حنينُ النفس وهواها ، وسمعتها مع هواتفِ النسيم البليل ، في حديقةٍ ذاتِ زهر وأَريج ، في الملأ من أَعيان الفضلاء ، وأَفاضل الالباء ، من فارس من فرسان البيان ينشر بَزَّ الفصاحة ، ويوشّي برودَ البلاغة ما

---

(١) ثم نشرت هذه الجريدة الكريمة مقالة طويلة جيدة لكاتب آخر من كتابها (ص . ر) في (الخطبة) ومذاهب المنشئين في هذا الوقت . ختمت بهذه الجملة « يبدو اذن للقراء جميعاً ان محاضرة الاستاذ انما جاءت في موضعها واوانها تذكرة لادبائنا من اهل التجديد الصحيح المؤصل وتبصرة للمنحرفين . فلا الجمود المحض ولا الانحراف الضال والخير كله في الرجوع الى القديم السامي والتجديد والأستحداث على اساسه »

شاءت له القدرة أن يتأنق ويُبدع . تحفزه الفطرة ، وتمدّه السجيّة حام من حماة اللغة . ذائدٌ من ذادتها عن شرف غاية وصدق غيرة : ذلك هو الاستاذ الجليل أديب فلسطين اسعاف بك النشاشيبي

سمعتُ المحاضرة الأنيقة المرويّة في اللغة العربية ، واللغة العربية هوى نفسي وحنينها كما قلت لك . وهل علمت يا سيدي القارئ أنّنا قد صرنا من امورنا في ليلٍ حالك ؟ وهل غاب عنك أنّه لم يبق لدينا شيء واحسرتاه ! لم تمتد اليه يدُ العدوان تمزّقهُ تمزيقاً وتذره رسماً دارساً ؟ حال عجب ! لقد انصرفنا عن الذي لنا الى ما في أيدي غيرنا . وأمسينا نزهد فيما توارثناه ، ولو كان من اكرم مدّخر ، ونطمح الى ما عند الناس ولو كان من أرذل ما يُقتنى . ولو وصفتنا واأسفاه ! لقلت : الأمةُ المقلّدة . . .

ولقيت اللغة ما لقيت منّا الأخلاق والعادات : عدوان بعد عدوان ، وغارة غبّ غارة . وهي مع ذلك الجامعة الأخيرة الباقية والرابطة التي ان هانت عليكم شقيتم ، والآصرة التي ان تراخيتم دونها تفرق جمعكم وانثلم امركم ، ولم تقم لكم من بعدها قائمة ؟ ولكن الله سبحانه لم يُخل الأخلاق الشرقية القويمة من حماة ، واللغة الكريمة من ذادة يفدون من

كل فجّ ، ويتألبون من حيث يريد الله أن يخرجوا ، مخلصين للجهاد ، لا يبتغون أجراً ولا شكراً . وسورية وفلسطين من تلك النواحي ، نواحي الخير التي يرسل ربُّكَ منها الينا أمداداً يردّون غارات التقليد والفرنجة على اللغة ، ويسدّون ما انثلم من ثغورها ، ويجبرون ما وهى من امورها . كان من أُولئك اليازجي والشدياق والبستاني والشرتوني . واليوم لنا منهم النشاشيبي [1]

كان الذي قدّم المحاضرَ الفاضل الدكتور الجليل منصورُ فهمي عميد الجامعة المصرية ثم برَز المحاضر الفاضل فألقينا السمع اليه ساعةً أيقنا عندها أن أديب فلسطين خطيبٌ قد خلعت عليه الطبيعة ما يُستحب من مزايا الخَطابة : بسيط اللسان ، مشرق ديباجة البيان ، جزل القول ، فحل اللفظ ، جهير المنطق ، يوقع أَلفاظه توقيعاً يتبعها الحركة الموزونة والإشارة الموفقة . وكنا نحسب أَنه سيلقانا باللهجة المعروفة فاذا هو يخاطبنا بلهجةٍ عربية قحة ، مضرية صريحة فكان والله

(١) قلت: من عادة الفضلاء ان يعزوا الفضل (وهم اصحابه) الى سواهم . ولعمر العلم ما داره الا مصر . وهل وقى العربية (وهل يقيها) من كوارث الدهر الا هي . فموئل لغة (محمد) مصر . وعلماؤها هم الذين يهدون الناس وهم الأُلى بهم يؤتم

حيث أَحبّ أَن يكون في موضوعه وفي كلامه

دافع عن اللغة دفاعاً مشكوراً ، وأَفحم الذين يكسون معانيَهم أَثواب الركاكة ويعرضون على القرّاء اقوالهم في برودٍ ممزقة بالية ثم يُسمون ذلك بالجديد عجزاً عن معاناة الجهد في معرفة لغتهم ، وإِجادة علمها والتبسط في ادراك حكمتها وأَسرارها والغوص على ما يتضمن بحرها من درر ولآلئ

وأَسكتهم فيما يزعمون من انهم يسايرون مذهب النشوء والارتقاء . وقال انهم لا يسايرون الا الاضمحلال والفناء ، لأن اللغة العربية قد سايرت هذا المذهب واتبعت سننه بالتهذيب المستمر فبلغت الينا على ما تعلم من جزالتها وروعتها . وهل نصدف عن الجميل الى الدميم ونرغب في الخسيس عن الرفيع ؟ وهل نستبدل باعجاز لغة القرءان سقم ما يبتذلون من لغة الضاد ويخلطونها بما يسيغون من عجمة الفرنجة وركاكة الاستعمال ؟

وأَما ما يزعمون من صعوبتها فما علمنا أَنّ فناً او علماً ، واللغة فن وعلم ، بلغ راغبُه منه بغير سهر ولا عناء . والمجدُ سبيلهُ وعر . وإِنما يتحقق فضلُ الفضلاء بتذليل الصعاب ، ومواصلة الكدح . على ان اللغة

الجرمانية من أَصعب لغات الغرب ، ومع ذلك نقرأ فيها أَبرع الأَدب ، وأَحسن العلم . وهؤلاء أُدباء فرنسا كلهم مجيد للغته ، وكلهم لا يُجيدها حتى يُلمّ بمعرفة اللاتينية واليونانية اللتين تشتق منهما أَكثر كلمات اللغة الفرنسية ومثلهم أُدباء من شئت من أُمم هذا الغرب الناهض

وكان الخطيب المحاضر جمّ الشواهد والأَمثلة اقامةً لحجّته وتقريباً لما يُدني من بيانه[1] احمد ابو الخضر

---

(١) نقلت اقوال بعض الجرائد في القاهرة . واني لشاكر لصحف ذلك البلد الكريم كافة فضلها .

كتاب
الامام الاستاذ
السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار (*)

أَحمَدُ اللهَ تعالى أَنْ أَراني منك أُستاذاً لهذه اللّغةِ التى خذَلها أَهلُها وعقّها أَبناؤها قد (ناهزَ المُقَدّمين وخاطرَ المُقْرَمين) في البِرّ بها والحَدَبِ عليها وحِفْظِ شَرَفِ عقائلها في أَمنعِ مَعاقلها و«إِسعافِ» المُستامين لفوائدِها بما لا يجدون عندَ غيره من فرائدِها ثمّ أَحمد الله تعالى أَنّه لم يجعله أبنَ بجْدَتِها إلاّ وكان له في أُمّتِها النّسبُ الصّحيح والحسبُ الصّريح فقد أَخذها بحقّ وجرى فيها على عِرقْ على حينَ نَرَى هؤلاء العَقَقَةَ من أَبنائها المُتفرنجين الّذين يُسمّون أَنفسَهم بالمجدّدين يُفضّلون المُقرَفَ

(*) وردت علي كتب كثيرة من طائفة من كبار الفضلاء في امر (الخطبة) منها هذا الكتاب المنشور كتاب العلامة حجة الاسلام الامام الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامي فاشكره وجميع الذين افضلوا علي بما كتبوا . وقد إذن الامام لي في نشر كتابه

الهجين على العتيق الكريم ونرى تجاههم علماء الفرنجة المستشرقين يختارون الحرّ الكريم والأصيل القديم ويحيون من كتب الأوائل ما أماته جهل الأواخر حتى ليوشك أن نضطرّ إلى الرجوع في أصل لغتنا وأمهات كتبها إليهم إن دام كلّ منّا ومنهم على ما اختار لنفسه وإذاً لا يكونون منّا كما كان سيبويه والجوهريّ والزمخشريّ من سلفنا أولئك قومٌ أخذوا عنّا اللغة مع الدين والإيمان فعرّبهم لنا الإسلام فجعلهم غذاءً صالحًا لهذه الأمّة ومدداً لبنيها لا جنسيّة لهم من دونها وهؤلاء ثابتون في عجمتهم راسخون في قوميّتهم ونعوذ بالله أن نصير الى هذه الغاية وفينا مثلكم من أنصارها والرّافعين لمنارها


Bibliotheca Alexandrina
0399178